أنطونيو تابوكي

تريستانو يحتضر

ترجمها عن الإيطالية

معاوية عبدالمجيد



أثر

تريستانو يحتضر

رواية

أنطونيو تابوكي

ترجمة
معاوية عبد المجيد

أثر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الطبعة الأولى

1434 هـ - 2013 م

ردمك 978-614-01-0744-1

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإيطالي TRISTANO MUORE
حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونيا من: The Wylie Agency (UK) Ltd
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقع بينه وبين دار أثر للنشر والتوزيع.

أثر

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية – الدمام
تلفون: 00966505774560
الموقع الإلكتروني: www.darathar.net
Email: info@darathar.net

من يشهد على الشاهد؟

باول سيلان

من المستحيل أن نكذّب الموتى.

فيروتشو

... روزاموندا روزاموندا ما أروع هذا المساء، كأنّه من صنع ساحرة مرهفة.. فيه ألف ضوء وألف صوت وألف قلب سعيد، يملأها الفرح.. يا لسعادتي وأنا لا أقاوم عينيك إذا ما نظرت إليّ...

هل أعجبتك؟ إنّها أغنية من أيام الشباب عندما كانت روزاموندا تنظر إلى تريستانو. وكلما نظرت إليه أحبّها أكثر.. لا أقاوم عينيك يا روزاموندا إذا ما نظرت إليّ.. لا أهيم إلاّ بك يا روزاموندا. وكلما نظرت إليّ أحببتك أكثر.. القلوب سعيدة يملأها الفرح.. لا أظن أنّ الفرح والسعادة كانتا متوفرتين في ذاك الزمان، فالطقس شديد البرد في الجبل، داخل البيت وفي الخارج.. سأشرح ذلك لاحقاً.. استرح الآن وتحلّى بالصبر فلديك الوقت، لكن ليس الكثير.. ليس أكثر من شهر تقريباً. سترى كيف أنهي ما عندي قبل نهاية شهر آب.. هل كانت رحلتك موفقة؟ ليس من السهل أن تجد الطريق الأنسب بين هذه الهضاب. أوصيت فراولين بأن تدلّك جيداً، وكنت أنتظرك من قبل، لكني متأكد أنها أربكتك بما فيه الكفاية. ليس لأنها لا تتحدث

اللغة الإيطالية، فهي تتقن اللغة أفضل مني وتعيش هنا منذ زمن بعيد. لكنها تباغت بلغتها الألمانية عندما لا يطيب لها القيام بأمر ما. إنها مزعجة حقاً. قل لها أن تعطيك مفاتيح غرفة دافني.. قل لها إنني أنا من أوصاك بذلك.

إنّك تعلم أنّ ما ننساه من الحياة أكثر ممّا نذكره منها.. تطلّ فراولين برأسها لتقول: (لا أثر للنهر الذي سبحت فيه مع فتاة ذات مرّة) ثم تغلق الباب.. لا أعرف إن كان ما قالته حكمة أم من شعر أيام الأحد.. إنها حكيمة زمانها عندما تعمل، ولم يعد من شيء تفعله في هذا المنزل إطلاقاً. ثم إنّ اليوم ليس يوم أحد، أليس كذلك؟.. آه كم يحتاج الإنسان إلى ذاكرة فيل! ومن يدري، فربّما يتوصّل لصنع مثلها يوماً ما، على شكل صفيحة إلكترونيّة صغيرة بحجم الظّفر تودع في الدماغ حيث تُسجّل كلّ مجريات حياتنا.. ألديك فكرة عن طقس الموت عند الفيلة؟ إنه الأغرب بين جميع المخلوقات التي تمّت دراستها.. عندما يشعر أحد الفيلة بدنوّ أجله يبتعد عن القطيع، لكن ليس بمفرده. يختار رفيقاً وينطلقان معاً، ويبدأان بالمشي في السافانا ثم يهرولان بتسارع يأخذ حالة المحتضر في الحسبان.. ويمضيان قدماً لعدة أميال حتى يقرر المحتضر أين يموت. فيتوقف لأنه يعلم أوان الساعة، ويدور دورتين ليرسم دائرة. الفيل يحمل الموت في صدره لكنه بحاجة لإيجاد مكان للموت، كأنه يرتّب موعداً. لعلّه يريد مواجهة الموت خارج ذاته، ليقول له: عم صباحاً يا سيدي الموت، ها قد وصلت.. ودائرة الفيل افتراضية طبعاً لكنها تفيده ليفهم جغرافيّة الموت، على حدّ تعبيري.. ولا أحد بوسعه الدخول إلى تلك الدائرة سواه، فالموت تجربة خاصة، لا تخصّ إلّا المحتضر نفسه.. وحينها

يأمر رفيقه بتركه وحيداً.. شكراً جزيلاً.. وداعاً.. ويعود الرفيق إلى القطيع. قرأت باسكال عندما كنت شاباً وأعجبني كثيراً، سيّما رأيه في الجانسينية[1].. فكل شيء، على حدّ زعمه، إمّا يكون أبيض أو أسود بمنتهى التمييز. كانت الحياة بالأبيض والأسود عندئذ، وفي الجبال لا بد أن تختار الأمور بدقة، إما هذا الطرف أو ذاك، إما أبيض وإما أسود. ثم تتكفل الحياة بالمزج بينهما.. وأعجبني أحد مفاهيمه عن الدائرة لأنه يذكّرني بدائرة الفيل: (إنّ الدائرة هي التي يكون مركزها في أيّ مكان ولا وجود لإطارها أبداً)... وهذا الأمر يتعلق بما اتصلت بك لتقوم به بطريقة أو بأخرى.. وكما قلت سابقاً، عليك أن تتحلى بالصبر لأنّ ساعتي لم تحن بعد، ومازال هناك الوقت مع أنك جئت على جناح السرعة لتهرول معي، وترافق المحتضر.. إنّ دائرتي لا يعرفها أحد غيري، أعرف متى تحين اللحظة.. لا شكّ أنّ ساعة الموت هي التي تختارنا، لكن لا بد أن تنال موافقتنا على خيارها. القرار للردى لكنك تشارك في صنعه أنت أيضاً، كأنّه قرار ما إن تتخذه بقوة حتى تستسلم لأمره.. فلنهرول الآن معاً إلى الأمام، حتى لو كنا نعود للخلف في الحقيقة، لأنني فيل يدعوك للعودة إلى الخلف، كي أصل إلى دائرتي الموجودة في الأمام. ما عليك إلاّ أن تصغي إليّ، وتكتب. سأخبرك متى يحين وقت الفراق.

عليّ أن أعترف لك بأمر ما: إنني نادم على دعوتك.. لا أعرف السبب، ربما لأني لا أثق بالكتابة، فالكتابة تزوّر كل شيء، وأنتم

(1) الجانسينية: نظرية مسيحية لاهوتية أسسها قرينيليوس جانسينيوس 1585-1638 صاحب كتاب الأوغسطينس، ويرى أنّ خطيئة آدم الأولى كافية لتجبل الإنسان على فعل الشر وارتكاب الخطايا. وعلّق باسكال على النظرية بالتذكير أنّ الإيمان يقوم على الأخلاق التي تصارع لردم الطبيعة البشرية الشريرة والتقرّب من المحبّة. (المترجم)

الكتّاب مزيّفو حقائق. ربما لأنّ الإنسان يحمل حياته معه إلى قبره، وأقصد الحياة الحقيقية والخاصة، تلك التي يعيشها المرء في صدره. ويترك للآخرين حياته الاجتماعية التي عاشها معهم خارج ذاته، وهي واضحة وحتمية ولا تحتاج إلى توثيق. رغم ذلك لي رغبة بالكتابة، أي بالكلام.. أرغب بالكتابة عبر شخص وسيط، فمن يكتب هو أنت، لكنه أنا.. أليس هذا غريباً؟..

ليتني أفتتح قصتي من بدايتها، إذا سلّمنا أن يكون لها بداية. فمن أين تبدأ قصة حياة؟ كيف لنا أن نختار بدايتها؟ بوسعنا أن نبدأ بحدث ما حقاً. لذا ينبغي أن أختار حدثاً مهماً، على وجه الخصوص، في الحياة التي جئت بنفسك لتكتب عنها. وهل يبدأ الحدث بحدث آخر؟ عفواً، إنني مضطرب، ولا أستطيع توضيح مقصدي.. أردت أن أقول إنّ أحداً ما يقوم بحدث ما، فيقرر هذا الحدث مصير حياته. ولا يعقل أن يأتي الحدث من فراغ كمعجزة، إنما يوجد في داخلنا بالأصل، وبدايته غامضة المنشأ: ربما تكون إحدى ذكريات الطفولة، أو وجه ما التقيناه صدفة، أو حلم يراودنا منذ زمن بعيد حسبنا أننا نسيناه. وهكذا يتحقق الحدث ذات يوم حين كان تريستانو يتحدث عن شوبرت في بلاكا. وكان الشتاء، إذ يقف صف طويل من الناس في الساحة الموحشة، وبأيديهم وعاء، ينتظرون حساءً سيئاً كانت حكومة اليونان تقدّمه للمواطنين كي لا يموتون جوعاً. وهو عبارة عن مياه داكنة ساخنة تعوم فيها قطع البطاطا والقرنبيط.. لا يسعني سوى الارتجال، قال آنتيوس، لكن تريستانو يسمّيه ماريوس لأنه يذكّره بصديقه من ريف تورينو يشبهه كثيراً. كان صديقاً عزيزاً اختبئ في مخزن الحنطة منذ 1939 مع عشيقته الحسناء. وفضّل عدم المشاركة

في الحرب وبدأ يقاوم فردياً قبل أن تندلع المقاومة الشعبية. روايتك لا تذكر هذه التفاصيل.. يضحكني أحياناً ما تتخيّل أنك تعرفه، لكن كتابك أعجبني بغض النظر عن هذا. إنه أعظم شهادة عن تلك الحقبة البطولية، وهي حقبتنا البطولية الوحيدة بالمحصلة.. وأصفها بالشهادة رغم أنك لم تولد بعد حينها، وكتبت عنها كأنك عايشتها. كنت شاهداً على موقف أخلاقي.. لكنك وضعت الأحداث أيضاً: الثامن من أيلول، جمهورية سالو[1] التي فرضت غطرستها واستبدادها على مصير الشعب الإيطالي، وقد رفض الرأي العام مفهوم الحرب الأهلية التي تعدّ اتخاذاً لموقف صعبٍ بغاية الخطورة حتى يومنا هذا. وإنك تعرف أفضل مني كيف كنّا نطلق النار على الأصدقاء كما على الأعداء في تلك السنوات. لكن هذا ليس مهماً جداً، ما أعجبني في روايتك هو التحقيق العميق في طبيعة البطولة والإخلاص والخيانة والرغبات والأحاسيس.. لو لم تكن صبوراً لشتمتني ومضيت في شأنك، بعد استقبالي الوقح، وأضرمت النار بروايتك التي تعهدت بكتابتها نيابة عني.. لكنك ثابت لا تتراجع قيد أنملة. أنت شخص مميز أيها الكاتب، ولا أعرف إن كنت مرتعداً أم شجاعاً أكثر مني لتتحملني.. أسمع أزيز ذبابة، أتسمعه؟ ثمّة أزيز رهيب في هذه الغرفة، لعلّها موسيقى السماوات؟ لكن الكون لا يقدّم هذا الأزيز، بل ينتج هذا الصوت المزعج من الكتّاب الذين يخدشون الصفحة بأقلامهم، وأنت تعامل الصفحة بودّ

(1) في بلدة سالو شمال إيطاليا، أنشأ موسوليني حكومة عميلة لألمانيا النازية عام 1943، أي بعد حجب الثقة عن حكومته التي أدخلت البلاد في حرب عالمية طاحنة. وكانت هذه الجمهورية تعتمد على وحدات خاصة من الجيش النازي الألماني للحفاظ على سيطرتها فارتكبت مجازر شنيعة بحق الشعب الإيطالي، مما استدعى حمل السلاح واندلاع المقاومة الشعبية من الجبال لتحرير البلاد. (المترجم)

كما يتصرف المروضون مع الحيوانات المفترسة. وللسماوات أنغام رائعة، تعزفها الملائكة التي رسمها المصوّرون في توسكانا أرض أجدادي. ولا تخضع لتدوين صارم، إنمّا هي ارتجال... ارتجال، أجاب ذلك الجندي اليوناني الهزيل الشاحب يومها، إذ كان يجالس تريستانو على طاولة في إحدى مقاهي بلاكا، بينما تتلبد الكارثة في الأعلى لمداهمتهما.. لا يسعني إلّا الارتجال. إنّ الموسيقى الخالدة انتهت، ولا يتسنّى لنا، نحن البائسين، سوى الارتجال. أعرف القطعة 142 للبيانو لشوبرت، هل تتذكرها؟.. إنها معزوفة كئيبة لكأنها تقبض على الروح مثل الحصار، وتعطي بذلك فكرة عن احتلالكم لبلادنا وعن هذا الحصار الذي تعانيه بلادي.. وما تتسم تلك المعزوفة إلا بالاضطهاد، تلك الثيمة كانت تضطهد شوبرت نفسه. ويبرز الاضطهاد في الموسيقى المرافقة لمقطوعة تدعى (روزاموندا).. فقام تريستانو بإيماءة تدلّ على التعب باتجاه الباراثينيون كأنه يقول: (حتى الآلهة عانت ظلم الغزاة).. وحينها ظهر مراهق هزيل من عمق الساحة، يجرّ درّاجة قديمة من مقودها، ويلتحف معطفاً عسكرياً يلامس الأرض، معلّقاً وعاءه بطوق حول عنقه. رأى الفتى الجنود الألمان الذين يراقبون الطابور، وأخذ يصفّر ألحان أغنية للثوار المتخفّين عن أنظار الاحتلال، لتبدو اللازمة البطيئة والخطيرة بهيجة كأنها مارش سريع. هرع إليه أحد الجنود وصوّب الرشاش نحوه، لكن الفتى لم يتوقف، بل تقدّم بجرأة كأنه يلعب والهزل مرسوم على وجهه.. كان الجميع ينظر متنبّأ بالذي سيجري، ولكن ما تحرّك أحد أو نبس ببنت شفة. وتجمّدوا كأنهم مسحورون. لقّم الجندي مخزن بندقيته فأصدر صوتاً كالحصى التي تهوي على الأرض. وأطلق النار على الفتى فسقط مع الدراجة. وإذ

بسيدة مسنّة، ترتدي ثوباً أسود، تخرج من الطابور لتصرخ بشتيمة ثقبت ذلك الصمت المطبق على المدينة. عرف تريستانو الشتيمة. كانت لعنة قديمة تنزل من يتلقّاها في الجحيم. ولم يفهمها الألمان المتمركزون على طول الطريق، لكنهم أدركوا مغزاها من حيث الأسلوب. فأخذ أحد الجنود الرشاش وأطلق النار على المرأة لتقع أرضاً وتعانق سكرة الموت بذراعين منفرجتين. وبتوجيه إلهي، بل عسكري، لأنه كان جندياً، أطلق تريستانو الرصاص على الجندي الألماني وأرداه قتيلاً.. فانتفضت بلاكا عن بكرة أبيها بسحر ساحر، وظهر الرجال من العدم، لأن ممثّلاً ثانوياً كتريستانو قرّر أن تبدأ لحظة الغضب والانتقام للمأساة الإغريقية. ولم يتوقع أن تندلع الثورة من حدث غريزي، دون اكتراث للتداعيات. بل كانت كدولاب حصل على دفعته وانطلق بقوة لوحده، فالموت وقود الحياة. وراح كل شيء يجري بسرعة عصيّة على السيطرة، كما الحياة إذ يركض خلفها التاريخ. هل فكّرت في ذلك يوماً أيها الكاتب؟..

كنت أعرف أنّ فراولين لن تستطيع أن تجهّز لك غرفة دافني إذ لم يبق شيء في الغرفة سوى الجدران. لا تؤاخذني، لكني أردت أن أعرف بم ستجيبك عندما تسألها عن ذلك، حتى لو كنت أعرف الإجابة مسبقاً. لقد جهّزت لك مكتبي لتبيت فيه، إنها تستقبل الضيف في مكتبي مهما كانت منزلته. ذات مرّة جاءني وزير، وسألتني فراولين أمامه إن كان عليها أن تفرش له في المكتب. فرمقها مرافقه بامتعاض وأجاب مغتاظاً: (السيد الوزير سيعود إلى روما مساءً).. وأنا واثق من أنك تحب البقاء في مكتبي: أتيت لتبحث عن الحقيقة، كأنّ الحقيقية لا بد أن تسكن في تلك القاعة بين غبار الورق والعفن.. تهانينا. أتعلم

ما الذي حلّ بالحقيقة؟ توفيت قبل أن تجد زوجاً لها.

أيّهما ضليع بخفايا المادة، العلماء أم الكتّاب؟ بوسعكم أن تعرفوا آليات الأشياء، لكنّ سرّها لا يعلم به أحد. بين الأشياء الموجودة ثمّة وفاق لا نعرفه، لها منطق مختلف عن منطقنا. وقوة الجاذبية لا تخضع لمفاهيمنا بشأنها، ولا حتى التبدلات الكيميائية التي تعلّمناها في المدرسة، كارتباط ذرة أوكسجين بذرتي هيدروجين لينتج ذلك السائل الذي ندعوه ماءً.. نحن بحاجة للدراية بالمنهجية الخاصة للكون التي تفلت من أيدي المخبريّين. لا أنكر عظمة نيوتن ومعادلاته، لكن للرياضيات أعماق أخرى وأسرار أكثر غموضاً.. هل كنت أتفلسف؟.. اعذرني، قل شيئاً ما، بل دعني أسهب في فلسفتي، اسمح لي بذلك فأنتم تتفلسفون دوماً، كلكم جهابذة تفسّرون لنا العالم. الجميع يريد أن يفسّر الحياة.. هل الزهرة هي الزهرة؟ إطلاقاً. أتعلم أنّ حديقة الأزهار وشجر الأجاص ينتميان لعائلة الورديّات؟.. ادرس علم النباتات، شجر الأجاص يثمر إجاصاً وحديقة الأزهار تنتج أزهاراً، ألا يتشابهان؟.. لديّ القليل من الفلسفة، فدعني أتفلسف بها.. لا تنظر إلى ساقي، أرجوك، بل غطّني باللحاف.. ثمة ذبابة، أتسمع أزيزها؟.. الغبية.. إنها تهاجم المرآة. تريد أن تخرج، وتحسب أنّ المرآة نافذة. قلت لك أن لا تنظر إلى ساقي. أعرف أنّ منظرها مقرف ويثير الاشمئزاز مع أنّني لا أستطيع رؤيتها، لأنّي مقلوب على وجهي كما أوصى الطبيب الذي قضى بعملية البتر. أجبته إن كان يحبّ البتر كثيراً فليبتر خصيتيه إذن. أما أنا سوف أحمل ساقي بما فيها من تلف إلى لحدي، فالجسد كله سوف يتفسخ في النهاية. لقد نهشتها الغرغرينا التي وصلت حتى الحالب. وسوف تنهش ما تبقّى من كينونتي البشرية،

رويداً رويداً، إن لم أمت قبل ذلك. ليس أمامها الكثير عموماً فحقيبتي فارغة، وهذا يعطيني الحق بأن أتفلسف وقتما أريد وكيفما أشاء. إنها فلسفة رجل متيبس، لم يعد لديه أهواء، كالصخور. أرأيت كيف أصبح العالم، عالمنا على الأقل؟.. أتحدث عن بلادنا حيث نعيش..الدهون والشحوم من حولنا، انظر إليهم جيداً، أولئك الذين حدثتك عنهم قبل قليل. مدّعوو المعرفة مليئون بالأهواء التي تحيط بكروشهم، كالدهون الثلاثية والكولسترول.. أما أنا أكاد أصبح معدنياً. أترى؟ إنّ الصخور لا تقـول شـيئاً.. إننـي صخـرة متكلمـة تقف عنـد حافة الفيضان. أقف هنـاك بسـلام وأنظـر إلـى الميـاه وأقـول: امض يا أختـي المياه، تابعي مجـراك، لا أحـد يعلـم مـا تظنين نفسـك. إنني هنـا ثابت عند الحافة، أخـوك المتحجّـر.. هـل أعطتـك فراوليـن غرفة مناسـبة؟.. إنها هكذا، تودنـي كثيـراً لكنهـا تحـب إثـارة المتاعب. الإزعـاج، هذا ما تبقّى لها فـي سـن الشـيخوخة. لـو لـم تكن تودني لسـببّت لـي المتاعب أيضاً، وربمـا تقـوم بذلـك لكنـي لا أشـعر بهـا. لقد نشـأنا معـاً، إنها بعمري ورغم هذا تعاملني كأمي. النسـاء هكذا، يعتبرن أنفسـهن أمهات حتى لو كنّ بأعمارنا.. ضع سريراً في غرفة دافني.. عاشت دافني قليلاً من حياتها في تلك الغرفة. وهي الآن فارغة لأني نشرت أثاثها في البيت هنا وهناك كي لا تذكّرني بها. لكن أثاثها مقدس لا يمسّ بالنسبة إلى فراولين. وأظن أنّ دافني تحملت هذا المكان ما دامت فراولين تبعث فيـه مـن ألفـة.. قالـت لـي ذات مـرة إنها نسـيت حقدهـا على الألمان بفضـل فراوليـن. كـم تطلّـب إقناعهـا ببراءة فراوليـن وقتاً طويلاً!.. إنّ فراولين تحكم على الأشـخاص من النظرة الأولى، كأنهم دجاجات. إذا كان الريـش مهلهـاً وضعتـه فـي أسـوأ المداجـن. إنك خجول نوعاً

ما أيها الكاتب. تكلم، تحرك، ارفع عرفك، فصديقتي حساسة جداً لهذه الأمور. أظهر إصرارك على المكوث في إحدى تلك الغرف حتى منتصف النهار، يكفي أن تضع فيها سريراً وخزانة صغيرة. بوسعك أن ترى الأبراج من ذلك الجانب من المنزل. أرأيت كم هي جميلة؟ كأنها تعوم وسط الهواء عندما ترتجف من قاعدتها بسبب الحر، فيقطعها ويرفعها نحو الأعلى.. إنها أبراج عتيقة تتطلع شوقاً إلى السماء، أتفهم؟.. افتح النافذة، واجعل الذبابة تخرج إن استطعت، ألا تسمع أزيزها؟ إنها تصطدم بالمرآة لأنها غبية حقاً، ترى المرآة مخرجاً.. انظر إلى أبراج المدينة، وما يحيط بها من هضاب، هذا المنظر الجميل الذي سأرحل عنه، انظر إليه من أجلي.. من الجانب الآخر بوسعك أن تسمع عرير الجنادب، تظلّ تغني طيلة الظهيرة وتعجبني مقطوعاتها لأنها موسيقى زاهدة قوامها النقر والصنج.. لقد عدت إلى هنا كي أرحل من حيث ولدت وأنا أصغي إلى العرير المحبب إلى قلبي. كنت أسمعه منذ الصغر في ظهيرة الصيف عندما أقضي القيلولة على هذه الأنغام. وكنت أقرأ كتباً اعتقدت أنها تفسّر الحياة، كأنّ الحياة قابلة للتفسير بكتاب، يا للوهم.. لماذا دعوتك أنت بالتحديد؟.. لأنّ كتابك أعجبني، وأنت تعلم جيداً كيف أفادتك شخصيتي في الرواية، لكنها كانت مثقلة بالأحداث، وكان كل شيء موغل بالواقعية حتى بدا زيفاً وكذباً. لم آتي بك لتسجّلني، فلا أريد لصوتي أن يبقى. ثم كيف تكون كاتباً بهذه السهولة؟ اكتب إن استطعت.. أريد أن تخلّدني بكلمات مكتوبة، وإن لم تكتب حالاً فسجّل في ذهنك ثم انقلني على الورق. واكتبني بكلماتك الخاصة، أثق بقدرتك على كتابة ما يرويه لك أحدهم حتى لتبدو رواية أخرى.. قل لفراولين أن تأتيني

بالمورفين، وعد إليّ لاحقاً. انتهى مفعول الحقنة، وسأنوح من الألم رغماً عني وهذا يحبطني بشدة.. هل حدثتُك عن فاندا؟.. لا أذكر..

صادفا كلباً في الطريق. لا بد أن يكون يوماً آخر، ومن يدري متى.. في آخر حياتهما على أي حال. كان الكلب يدعى فاندا، بفاء رقيقة تليق بحيوان بائس مثله. لم يلفظ الكلب باسمه، ولم يكن ليستطيع، لأنه كان يلفظ أنفاسه. لكن روزاموندا تذكرته فعرفته عن بعد على الفور.. انظر، إنه الكلب فاندا، أتذكره؟.. كاد أن يدهسه في النفق المظلم عند المنعطف. انتظراه على جانب الطريق العام خشية من الاصطدام بإحدى الشاحنات المسرعة كما يحدث غالباً. وصلت فاندا وهي تعرج، ذقنها منخفض ولسانها يلامس الإسفلت، لكنها كانت تمشي جيداً على يمينها بجانب الخط الأبيض. كان ثدياها متدليين كأنها أرضعت جرواً صغيراً حتى لو كان هذا من المستحيل نظراً إلى عمرها المتقدم الواضح على شفتيها وأسنانها. كان عمرها عشرين عاماً على الأقل، وهو عمر جيد بالنسبة للإنسان، أما بالنسبة لكلبة فهي متهالكة لا محالة.. أرضعت الجرو لأنها حنونة، قال أحدهما لا أذكر من بالضبط. إنها كلبة طيبة وطاهرة، قضت حياتها مدفونة حتى عنقها.. حملاها إلى المقعد الخلفي، وكانت أظافر قدميها تحولت إلى لحم من المشي المتواصل. أدركا أنها مشت آلاف الأميال قبل أن يصادفاها. ولم يقل ذلك أحد منهما، فبعض الأفكار لا تقال أبداً. على الجسد أن يحفر طبقات كثيرة من الوقت ليجمع، بكدّ، حول النواة، أكبر عدد من العلل الضرورية لكينونته. فتظهر صفات المخلوق الحي على السطح حتى لو كان في النزع الأخير، مثل فاندا. وقد ينخدع الجسد بأنه ينطلق للقيام بذلك حينما تقترب نهايته.. يا

إلهي، ومن يستحقّ هذا؟ سأل تريستانو. إنه سؤال بلاغي لا ينتظر إجابة من أحد. كانت الظهيرة، والطقس حار، وأشعة الشمس متوهجة كأنها متوسطية. عندما تحدث أمور غريبة كهذه يكون الطقس حاراً والشمس مشعة تذكّر بالمتوسط حتماً. وهذا حقيقي لدرجة أنك حرّ في تصديقه أو لا. وفي حال أنّك تصدّق فتريستانو كان يقود على مهل، وكان الشاطئ الصخري يميل إلى الحمرة، وخط البحر أزرق غامق. بدت فاندا نائمة، ولم تكن كذلك. فكانت تغمض عيناً وتفتح آخر تركّز من خلاله على المنفضة المليئة بأعقاب السجائر تحت النافذة الخلفية. وتفكر بعالمها المليء ببقايا السجائر وغموض ديانات الإله المريض الذي خلقها. كان تريستانو يحدّق بها خلسة، وفهم السؤال الذي يجول في بؤبؤ عينها الخائف. وغمغم قائلاً: (هذا المنعطف المظلم يجعلك أباً، وأعقاب السجائر تجعلك ابناً، والزمن الذي لم يعد كما كان يجعلك الروح القدس، هذا هو الثالوث الذي تنتمين إليه يا فاندا الغالية.. استسلمي، لم يعد بوسعك فعل شيء). قالت روزاموندا، كأنها تتكلم لسراب القيظ الذي يرقص في الأفق: (لم تشأ أن يكون لديك أبناء. كنت ترمي نطافك على بطني هباء، في كل تلك السنوات. والآن ولدت عزيزتي فاندا، لكنها ولدت متأخرة جداً). ستموت غداً، أجابها، بوسعك أن تحضنيها هذه الليلة كابن، وأن تعطيها صدرك مثلاً، أفضل من لا شيء. إنني رميت بنطافي خارجاً لأنك كنت تكذبين، فكنت أكذب أيضاً..

يا لها من ليلة غريبة في فندق تاديو. كان يرى من النافذة مركبين مضائين يتزلجان بهدوء، كأنه يحلم. وعندما غاب المركبان من إطار النافذة، حملت موجة الريح حفنة أنغام تدخل إلى الأذن بسلاسة بدت

لهما كموسيقى فالس. هل كان البعض يرقص على ظهر السفينة؟ ليس مستبعداً، فعلى متن السفينة غالباً ما يرقص الناس بكل سرور في جولة بحرية مهما كان مستواها، كجولات الفقراء التي تعبر الخليج من سان فروتاتو إلى سان زاكارينو، وتدوم يوم عطلة واحد. يستغلّ الناس أية لحظة للرقص والتسلية، خاصة بعد أن دفعوا ثمن البطاقة مدركين عودتهم إلى العمل صباح الغد. حاولت روزاموندا أن تعطي ثديها للكلبة، لكنها رفضت. كانا يسمعان لهاثها حتى الفجر، وحينها سكن اللهاث. دفناها عند الشاطئ قرب خليج الحصى الضيّق حيث هنالك درب يتهاوى حتى الموج الذي يعجن الحصى بتأنّ قرناً بعد قرن. كتبت روزاموندا باستخدام الصدف والحصى على القبر: «فاندا صفر صفر صفر صفر»، قاصدة بهذه الأصفار تاريخ ولادة فاندا وهو نفسه تاريخ وفاتها. الأمر الذي سيفهمه تريستانو فقط، وقد غمر الوقت المنصرم الأصفار من اليوم الذي رغبت فيه روزاموندا بطفل، حتى ذلك اليوم الذي دفنت فيه الرغبات تحت اسم كلبة بائسة. فمع مرور الوقت حتى الرغبات تموت، ولا بد أن تدفن. ظلاّ يشاهدان بزوغ الشمس في الأفق الضيّق بين نتوءين جبليين في ذلك المكان البحري البهيج، الذي كانا يصلان إليه بالحافلة العامة في وقت عابر. كانت الشمس قوية، وكانا يعرفان أنّ الشمس تجعل الأشياء تحتها عتيقة جداً. وهذا ما لا يخفف آلام أيّ منهما.. غنّي لي أغنية من تلك الأغاني، قالت بصوت رفيع. أيّ أغاني؟ سألها. ألا تذكر تلك الأغاني، عندما كنت تحملني على قصبة الدراجة في الجبال؟ كنت أسند رأسي إلى صدرك، فتصلني رائحة الثوم عبر صوتك. كم أكلنا من الثوم في الجبل! وكم أكلنا من الحلزون البروفنسالي اللذيذ والمليئة بالثوم

أيضاً.. فغنّى حينها: يسقط الزيتون، لا تسقط الأوراق، وجمالك لا يسقط أبداً، أنت كبحر يكبر بموجه، يكبر بفعل الريح وليس بفعل الماء. إنها أغنية لنوم الأطفال. ومن الصعب تحديد دوافعها: هل كانت لهزّ سرير فاندا كي تبلغ العدم الحتمي، أم كانت لهما أم لأحلامهما التي لا تنضب أبداً.

هذا مطلع القصيدة.. انتظر، دعني أتذكر.. رأيت الفتيات يصرخن في العاصفة، وكانت كلماتهنّ تتطاير في مهبّ الريح، وأنا كنت أسمع بخوف ولا أفهم شيئاً، ربما تنعي الفتيات رحيل العنفوان.. القصيدة طويلة جداً، إنها من الأشياء التي تزعجني بها فراولين يوم الأحد. سأقرأها عليك مقطعاً مقطع في كل مرة، كلّما يخطر في بالي، فما زال هنالك الوقت.. قلت لفراولين: صبراً، لا تقرأي عليّ أشعاراً من هذا النوع في يوم الأحد. ألا تقدّرين حالتي؟ اقرأي شيئاً خفيفاً طفولياً، كقصيدة مطر آذار المنهمر كفضة على السطوح، أو شيء من هذا القبيل، أرجوك. فتجيبني: كيف يجول مطر آذار في سرّك ونحن نعيش شهر آب مرتفع الحرارة؟

كان اسمها دافني، وكان يدعوها مافري إيليا، لعينيها الواسعتين كحبّتي زيتون أسود. في بلاكا يومئذٍ، حدث أنّ الضابط النازي كان مضرجاً بدمائه في الساحة، وقدماه متباعدتان، قريباً من الفتى وتلك المرأة الذي قتلهما، والدماء تسيل من فمه. وهبط نفر من الألمان من دروب أعمدة زيوس، حيث كان القائد العام في فندق بريطانيا. بدأ أحد الثوار اليونانيين بإطلاق النار من إحدى النوافذ المشرفة على الساحة. حطّمت إحدى القذائف التي تحملها الرياح عمود إيولو، ومزّق تريستانو معطفه العسكري الإيطالي ورماه في الشارع بقرب

النازي القتيل، فلم يكن يريد أن تصيبه نيران الثوار، ولم يعد يريد أن يكون إيطالياً بالأحرى. أراد أن يخلع عنه ذلك الوشاح المرعب، وشاح الجندي المستعمر الذي أرسله سفّاح مجنون أراد أن يمزّق اليونان أشلاء على شواطئها. وصل تريستانو قرب بوابة خضراء ضخمة، ورأى باباً صغيراً يُفتح في وسطها. خرجتْ حينها كحيوان بريء وتائه لتنظر إلى الساحة بترقّب. تقدمت في ذلك الفراغ، تحرّت فرأت تريستانو بقربها. نظرت إليه بعينيها الواسعتين الغامقتين. فقال لها: إنني جندي إيطالي، وقتلت ضابطاً ألمانياً للتوّ.. لم تفهم، فأشار إلى نفسه بإصبعه وكرر على مسامعها: إيطالي.. ثم بإبهامه المرفوع وسبابته الممدودة على شكل مسدس، أشار إلى النازي الطريح أرضاً وقال: بووم.. ونفخ على سبابته. فتراجعت، وأومأت بيدها إليه ليدخل من تلك البوابة... لا أعرف ما الذي يحملني لرواية هذا الحدث أيها الكاتب؟ لا أدري إن كان كاتباً مثلك يحتاج إلى حدث كهذا أم لا. إنك كاتب يقدّر الوجدانية عندما توجد، ولهذا أروي لك ما حدث... دخل تريستانو وأقفلت البوابة. كانت تنظر إليه بعينين مرتبكتين، مندهشة وربما خائفة؛ فهو كان عدواً على أي حال. أسمى تريستانو نفسه باسم يدعونه به عندما كان صغيراً، نينو. فأجابت باليونانية: أدعى دافني.. ابتسم ونسي ما يجري من حوله. فقال باليونانية: تعلمت قليلاً من لغتكم أثناء غزونا لبلادكم، أستخدم الأفعال بمصدرها، سأسمّيك مافري إيليا، لأنّ عينيك تشبه الزيتون الأسود.. أومأت إليه بأن يتبعها، فصعدا درجاً عتيقاً. كان سقف البيت قديماً، وثمّة جرار مغطاة بقشور بحرية على طول الحائط، وستائر غامقة تشبه رجالاً عمالقة ملتحين. كانا صامتين، وهو يرجف من البرد. قالت له شيئاً لم يفهمه، بينما ثقبت الشمس، بشعاعها الذي

انحنى على تلك الغرفة الساكنة، ذلك اللون الرمادي الذي كان يغطي النهار. سمعا عيارات نارية بعيدة جداً حينما وصلا إلى غرفة كبيرة فارغة بالكامل. لم يكن فيها إلا سرير صغير مع أيقونة فوق المخدة، ومرآة وبيانو. تكلمت إليه بالفرنسية: هذه غرفتي وهي لك الآن.. ثم قالت بلغتها (إفخاريستوو!).. علامَ تشكرينني؟ سألها. فأجابت: لأنك قتلت عدوّنا. إني عدوّكم أيضاً، قال. فابتسمت جالسة على السرير المغطّى بشال من ورود وقالت: نحن الاثنان، من نكون؟.. كانت عيناها الباسمتان بجمال يفوق خيالك أيها الكاتب. حتى لو كنت بليغاً بوصف النساء، لن تصل إلى مستوى ذاك الجمال. كان أسطورياً حتى بالنسبة لتريستانو، الجندي الإيطالي الغازي الذي قتل ضابطاً نازياً حليفاً لبلاده دون أن يعرف السبب. فشعر بعبثية ما حصل. أتعلم؟ كان كل شيء بلا معنى حينذاك، هذه هي الحقيقة.. تريستانو مضطرب وقلبه يخفق بسرعة. بوسعك أن تتخيل أحاسيس شاب بعمره في ذاك اليوم الرهيب، أيها الكاتب، فأنت الذي تتلاعب بأحاسيس الآخرين.. اقترب بحذر إلى النافذة المطلة على الساحة، ونظر من بين الستائر المدببة. ما تزال جثة الفتى والمرأة على قارعة الطريق، واستطاع الألمان خلال ذلك أن يسحبوا جثة الضابط خلف صرح الرياح. ولم يكن هنالك أحد، لا حياة لمن تنادي، كلحظات معيّنة من الجمود، كمسرح خاوٍ. لا شيء سوى دراجة يرقد قرب مقودها جندي بخوذة مقلوبة. لا بد أن يكون التعيس أول من أرسل الألمان ليحسب جثة الضابط، فاغتاله قنّاص يوناني. تركته وحيداً في الغرفة، ونظر إلى نفسه في المرآة. كان شاباً في تلك الحقبة لكنه شعر بالشيخوخة. رأى دفتر الموسيقى على البيانو. كانت موسيقى لشوبرت. استلقى على السرير، في تلك الغرفة ذات

الطابع الفرنسيسكاني مع أنّ البيت ينتمي للطبقة الأرستقراطية. فالغرفة متواضعة، فيها مرآة متسخة وسرير لممارسة الحب أكثر من مرة... لكنه لم يفكر بهذا، بل أقوله لك لأنّ فراولين قرأت لي قصيدتها المعتادة، أتعرفها؟. لم يكن تريستانو يعرف تلك القصيدة أيضاً، لكنه فهم أنّ الزهد الفرنسيسكاني الذي يميّز تلك الغرفة كان السبيل الوحيد ليتصدّى به بؤس الحياة. نهض كمن يمشي في نومه، فاتحاً ساعديه إلى الأمام، ليحمي نفسه من الشقاء الذي نزل على حياته بكلّ ما فيها. أطلّ برأسه إلى الممر المظلم وصرخ: مافري إيليا، فلننجو بأنفسنا! ثم استلقى مجدداً على السرير وأغمض عينيه. وصلت على رؤوس أصابعها ولم يشعر بدخولها. هل ناديتني؟ سألته بالفرنسية. فقال لها: اعزفي موسيقى شوبرت على البيانو أرجوك.. فجلست عند البيانو. قاطعها قائلاً: أتعرفين الثيمة التي استخدمها شوبرت في مقطوعة روزاموندا؟ ثم طارحها الغرام كلّ الليل، كأيّ أمر اعتيادي، دون أن يتكلما. وفي الصباح، بينما كان يعانقها، كلّمته عن وجه القديس جرجس مرسوماً في أيقونة بيزنطية توجد في إحدى جزر بحر إيجه، لا أذكرها الآن. أعتقد أنه حدّثها عن كاتدرائية رومانية في بلاده، حيث توجد زهرة عملاقة على واجهتها. وخلال نعاسه بات يهذي عن زهرة الريح، قائلاً إن إتّباع الريح هو الشيء الوحيد الذي يجدر فعله في هذه الحياة.. إيولو، كان يقول، إيولو.. بزغ الفجر ونهض تريستانو ونظر إلى الساحة متجسساً بين ستائر النافذة. ما تزال خالية عدا جثة الفتى والمرأة التي ترتدي السواد، قرب صرح الرياح، إضافة إلى الجندي الألماني المحاذي من مقود الدراجة. اقترب تريستانو من الفتاة، وقبّلها بين عينيها المغمضتين، وهمس في أذنها: لقد وجدتك يا مافري إيليا ولن أتركك، سآخذك

بعيداً. سنخرج الآن مع الفجر. سنتّقي البرد بلحاف نحمله معنا من هذا البيت القديم. ستجلسين على الدراجة، فأجرّها حتى نصل إلى بيريو، حيث يوجد الحلفاء. سيساعدوننا على الفرار إلى أن نصل إلى إيطاليا. إنّ رأس الثعبان هناك، وعليّ أن أحاربه هناك تحديداً. يجب أن نقطع رأسه، قبل أن يصل سمّه إلى كل مكان. سأذهب لأقطع رأسه، وسوف آخذك معي. سوف نعبر هذه المدينة المحاصرة حتى نصل إلى البحر، ولم لا؟ فمامن غرابة أكثر من هذه التي وقعنا بها.. فتحت عينيها، وربما أصغت إلى همسه، وابتسمت كأنّها تهيم في العدم.. سآخذك إلى دولة أخرى إن استطعت. فأيام الثعبان باتت معدودة، لحسن الحظ، كما سمعت. فلنهرب من اللهب.. إلى المقلاة على الأقل.

لم يجرِ الحدث هكذا.. لقد أدركتَ ذلك بالطبع. اكتبه كأنه حدث فعلاً، لأنّ تريستانو وجده حقيقياً. ليست حياة الإنسان ما قد عاشها فحسب، بل ما تخيّل أنه يعيشها أيضاً، إذ تشتبك المخيّلة بالذاكرة. لقد قتل الضابط النازي بلا شك، واستقبلته دافني في ذلك البيت القديم حقاً، وعزفت له شوبرت، ونظرت إليه بعينيها الواسعتين، لكنه لم يلمسها. كان مجرّد حديث دار بينهما عن بلادها المغتصبة، وعند الفجر أخرجته خلسة مرتدياً معطف والدها. ولم يبلغ بيريو مطلقاً، فقد عاد إلى إيطاليا بعد الثامن من أيلول. رافقه اثنان من أصدقائها حتى كورينتو، وانضمّ إلى ثوار اليونان في جبال البيلوبونيس. لكنه همس بأذنها بينما كان يخرج من تلك البوابة في الصبح: أقسم لك أنني سأعود، انتظريني، أرجوك.

لا أعرف ما الذي أجنيه من حزني، وقد زارت إحدى الخرافات القديمة روحي.. إنها من قصيدة الأمس، بالألمانية. أحياناً تتصرف

فراولين كأننا عدنا أطفالاً. تقول لي: حانت قصيدة يوم الأحد أيها الفتى.. إنها تحترم المواعيد ومازالت تحافظ على طقس قديم. جاء بها جدّي كي تعلّمني اللغة. وكان الطقس أن أجلس على الديوان في الصالة، قبل ربع ساعة من بداية الدرس، إذ ينبغي على الأطفال أن ينتظروا. الخامسة إلاَّ ربعاً. جدّي لا يتساهل بالمواعيد رغم تساهله بأمور كثيرة، يقول: هنالك من أضاع السفينة لأنه تأخر. وعلى الطاولة يوجد إبريق الشوكولا الساخنة وفنجانان، واحد لي والآخر لفراولين، وكنت أرتدي بنطالاً قصيراً. طق طق، Guten Abend Herrchen, Entschuldingung[1]، حان موعد الشعر. كانت صبية خجولة، من عمري، وكنت خجولاً أكثر منها. تضطرب أثناء القراءة، وعليّ أن أصغي إليها. وكنّا نتجنب تبادل النظرات. إنها تكنّ لي مودّة خاصة، وأنا أبادلها المودّة وفق مزاجي، عندما لا تسبّب المتاعب. وكما تعلم، إنها الشخص الوحيد الذي بقي عندي. قضينا حياتنا يتجنب كلٌّ منا النظر إلى الآخر، ربما لأننا، عندما كنا صغاراً، كانت لدينا رغبة جامحة بتبادل النظرات ولم نمتلك الشجاعة لفعل ذلك.. Ich weiss nicht was soll es bedeuten, Dass ich so traurig bin, Ein Märchen aus alten Zeiten...[2] أتعرفها؟ يتعلمها التلاميذ الألمان في الابتدائية. وتتحدث عن حورية شقراء تجلس على صخرة الرينو، تثير رغبة البحارين بشعرها الذهبي وصوتها العذب، تدعى لوريل.. لطالما احترمت فراولين طقسنا واحتفلت به كلّما عدت من ترحالي، كأن

(1) الجملة واردة باللغة الألمانية وتعني: عذراً، مساء الخير أيها السادة. (المترجم)
(2) الجملة واردة باللغة الألمانية وتعني: لا أعرف ما الذي أجنيه من حزني، وقد زارت إحدى الخرافات القديمة روحي. (المترجم)

شيئاً لم يكن. اندثرت هذه العادة لكن احترامها تجاهها ظلّ مقدّساً، فهي كعقد أبرمناه منذ سنين طويلة ثم تكفلت الحياة بترسيخه. ولا يزال الشكل نفسه مهما تغيّر المضمون. وبقي الطقس على حاله رغم تطوّر اللغة وظهور قصائد أخرى بحلل حداثية. ولفراوين الأفضلية في اختيار القصائد دوماً، وهذا منصف لأنها تعرف الكثير من الأشياء. تعرف ساعات حياتي وأيامي كلها مثل المذكّرة التي كان الرهبان يستخدمونها في الماضي.. تمرّ الحياة كنسمة هواء، لكن ظهيرة يوم الأحد طويلة. عرفت فراولين كيف تختار القصيدة المناسبة في الوقت المناسب عندما أكون موجوداً طبعاً، لأنني غالباً ما كنت أغيب، بل لم أكن بالكاد أوجد. أتعرف ما الذي قالته لي؟ قالت شيئاً أزعجني وحرّك مشاعري. غريب، فالمشاعر تخص المزاج الذي نملكه داخل قارورة رأسنا، والمعدنيون أمثالي لم يعد لديهم رطوبة تذكر. ولكن عندما سمعت كلماتها الوجيزة - فهي بخيلة أيضاً - بلكنتها الإيطالية الثقيلة التي تظاهرت دوماً بعدم تعلّمها جيداً طوال سبعين عاماً ونيف قضتها هنا، أدرت وجهي صوب النافذة المغلقة كي لا ألاحظ هشاشة هذا الحجر. وبدأ المصراع يهتزّ ليس بفعل الحرارة، بل لأنها قالت لي بطريقتها الفجّة إنها، حتى عندما أكون مسافراً أو في خطر، أو عندما تظن أنني في خطر، كانت تدخل إلى الصالة كل يوم أحد في الخامسة إلاّ ربعاً، وتتخيل أنها تصب الشوكولا في الفنجانين وتقول لنفسها بالألمانية: حانت ساعة الشعر أيها الفتى. فتقرأ قصيدة تناسبني لذلك اليوم لتدعم موقفي بها.. ساعات شعر لا تحصى أيها الكاتب. كم يوم أحدٍ يمرّ في سبعين عاماً وأكثر؟ ربما مئات الألوف.. أعطني كأساً من الماء. افرغ الكأس أولاً، فراولين تضع فيه قطرات

من الليبولد المنشّط. املأ الكأس من مغسلة الحمّام، ذلك الباب قرب الخزانة، اعذرني إن جعلتك تعمل كممرض، ليس ذاك الباب، إنها غرفة الملابس، بل الباب على جهة اليمين، عليك أن تدفعه قليلاً، فالمقابض تتجمد أحياناً، إملأ الكأس من المغسلة ذات الكرة الحمراء، فالسمكريّ أخطأ في تركيبها ولم أسع إلى تبديلها يوماً، هل رأيت الصورة في غرفة الملابس بالمصادفة؟.. إنك تنظر إليها، استوعبت ذلك لأنك لم تجبني، رجاء لا تشفق علي، لا أريد منك شفقة، فصورة كهذه تثير الحسرة على الزمن الفائت، وهذا الجسد حقيقي رغم أنه يحاول تقليد لوحة لكوربيه، وثمّة بقعة صفراء تكاد تصل حتى السرّة، تبدو كيد تتلف الجسد مثل الغرغرينا، الصور تخطو بالتزامن معنا، فبشرتنا تتجعد وهي تصفرّ وتتردى، لها جلد مثلنا يخزّن البحر الداخلي الذي خرجنا منه، فنحن خلقتنا المياه، والجلد - في آن معاً - يحفظ الجسد من الحرارة الخارجية والداخلية بالقضاء عليها عندما تتمادى مع الزمن.. وعندما يتبخر البحر تظلّ قشرته مجعدة بالكامل، وغير ذي جدوى. التقطت الصورة بآلة راقية للضابط الألماني ذي المعطف والبندقية، كان يحمل صورة عائلته والآلة الغالية على قلبه، وكان يعشق عائلته حتى لو ذبح عائلات الآخرين، فمن الإنسانية أن نكنّ الود لعائلاتنا.. قد تعود هذه الصورة إلى عام 1948 وربما قبل ذلك، عندما عثر تريستانو على الحسناء. لي رغبة أن أدعوها اليوم هكذا. انتهى بهما المطاف إلى الفندق الصغير، بالصدفة. فكل شيء يحدث عن طريق الصدفة في الحياة، وأرى حرية الاختيار من مفرزات الصدفة أيضاً.. يا للغرابة، تصوّرْ أنني أذكر تماماً حساء السمك الذي تناولناه ولا أذكر إن تطارحنا الغرام! لكنني أذكر بالتأكيد أنّه اقترح عليها أن

تأخذ وضعية «بدء الحياة» ليصوّرها، وتلك الصورة التعيسة تثبت ذلك. كان يوماً صيفياً يودّع الظهيرة، وثمّة ضوء رائع. روزاموندا، قلّدي «بدء الحياة»، قال تريستانو.. ولم يتحقق بينهما أي بدء للحياة، كان حباً عقيماً دون تواصل جسديّ.. وهذا أفضل بالنتيجة.. الماء فاتر، قلت لك إنّ صنبور المياه الباردة في مكانها الخاطئ، إنها على اليمين، في المرة القادمة أحضر المصاصة التي توجد فوق الدُّرج، كي لا أبلل الفراش. ألا ترى أنني لا أقوى على الابتلاع، ليس لي لسان إسفنجي كالكلاب.. كنت أحدّثك عن فراولين. قرأت لي في الأحد الماضي قصيدة جميلة برأيي. ورأيت حلماً جميلاً هذه الليلة، كنت أصل إلى «بدء الحياة».. أعطني المصاصة ومزيداً من الماء.. إنّ الأحلام عبارة عن معجزات منهَكة.. لا أؤمن بالمعجزات الحقيقية، فهي مجرد أوهام..بل إنها أحلام بالأحرى.. كان يوم الأحد أول البارحة، أليس كذلك؟.. لم أعد أحسب الأيام جيداً. تدخل فراولين طارقة الباب بخفة كما تفعل منذ سبعين عاماً مضت. حانت ساعة الشعر أيها الفتى. تجلس، وتفتح كتاباً.. فراولين تفهم أيام الأحد، وتحاول أن تصفّي صوتها بصعوبة بالغة، مما يجعله كمنفاخ الحدّاد. فعندما تتحدث تنفخ الهواء، لأنها مصابة بانتفاخ الأنسجة العضوية. أوضح لها الطبيب ذلك لكنها تظاهرت بعدم الفهم. إنها رائعة، إذا قلت لها أمراً لا يعجبها تعتبر نفسها ألمانية وصلت لتوّها إلى إيطاليا. تدخّن السيجار بالخفية، تنزوي في عمق الكروم. أوشى بها حفيد أوغستينو، الفتى الذي يفلح المزرعة والكرمة المريضة. قال لي: سيدي الأستاذ، أستغرب من رؤية السيدة فراولين جالسة تحت شجرة الحور في آخر الكرمة وتدخّن ثلاث سجائر واحدة تلو الأخرى، من الثالثة إلى الخامسة يومياً. فسألتُه: وما

الذي تفعله أثناء التدخين؟. قال: لا شيء، تنظر إلى البعيد بشرود. مررت من أمامها لكنها لم ترني أو تظاهرت بذلك. فقلت له: ربما تفكر في طفولتها في ألمانيا، ألا تفكّر في طفولتك أبداً؟ لكنك أمضيت الطفولة في بلادك وأنت موجود فيها الآن، فترى طفولتك بسهولة. لا تقلق بشأنها ودعها تدخّن ما تشاء من السجائر، حتى الأشخاص المتوحّدون عليهم أن يفكروا بأحد ما... أسمع أزيزاً، شيء ما مرّ على وجهي، لا بد أنها الذبابة. لو فتحت المصراع قليلاً لاستطعت أن تجد لها منفذاً. افتحه شيئاً فشيئاً، فالضوء قويّ جداًوقد تؤلمني قدماي عندما يبهرني الضوء.. قرأت لي فراولين قصيدة لشاعر لا أعرفه، ربما لشاعرة. لا يهم. قالت لي: أيها الفتى، قصيدة يوم الأحد. وبدأت القراءة.. فقلت: (هذا الغبار المطمئن)،أعرفها جيداً عن ظهر قلب. تقصدين الفتاة الأمريكية التي جعلتني أندم طيلة حياتي. فتجيبني: كلا، لكن عنوان القصيدة نفسه. هيّا، إنها الخامسة إلاَّ خمس دقائق، نحن متأخرون عشر دقائق.. فقلت: مستحيل، إنك فظيعة حقاً. مضى كثير من الوقت الشقيّ منذ أن كنا صغاراً، بالجوع والحروب والكوارث والمصائب التي أوقعها علينا. وكم أخذ من الأحبّاء، مات الجميع ولم يبق سوانا لتقولي إننا متأخرون عشر دقائق، على ماذا متأخرون بالضبط؟.. مهلاً، نحن متأخرون عن المورفين.. أرى تعبيرها العنيد بمشقة، وتسريحتها وشعرها الأشيب الذي يحيط بها كهالة.. متأخرون عن المورفين، أمرني الطبيب بحقنك كل ثماني ساعات، عليّ أن أعطيك الحقنة القادمة بعد خمس دقائق، فلدينا وقت قليل، وأردت أن أقرأ لك القصيدة قبل أن تفقد وعيك ورشدك.. تفضّلي واقرأي إذن.. ماذا يفعل ولدي، ماذا يفعل حصاني الجميل ؟،سيأتي ثلاث مرات وقد

لا يأتي بعد.. فقلت: لا تغني لي أغنية نوم الأطفال، أرجوك.. إنها افتتاحية القصيدة، اخرس واستمع.. إن لمست الأموات فهم باردون، أما الأحياء فهم شيء آخر تماماً، وعندما لمست حبيبتي كنت سعيداً، والبارحة حلمت بها وهي في حديقة، نصفها عجوز ونصفها طفلة... لم أعد أذكر البقية، كانت فراولين تقرأ وتعطيني حقنة المورفين في الوقت نفسه، ولم أنتبه لذلك، فوجدت نفسي في عالم الأحلام، عند «بدء الحياة»، ونادراً ما يحالفنا الحظّ أن نحلم بما نريد. سأروي لك الحلم لاحقاً لأني متعب الآن، هذا إن بقي في ذهني. كم هي الساعة؟

فيروتشو يقول إنّ الأحلام لا يجب أن تروى، فهي كالروح لا تهدى.. لطالما صدّقت هذا، ولا يبدو لي الأمر صحيحاً في حالتك لأنك أتيت لتسمع قصة حياة، وعبرت أميالاً وتركت كل شيء وراءك، وتستحق أن أهديك أحلامي.. كنت أريد أن أروي لك عن ساحل، لا أعرف إن حلمت به على الدوام أم منذ قليل فقط، وليس هذا مهماً. سأروي الحلم لاحقاً، فقد شعرت أنني عثرت على خيط منطقي يربط الأمور ببعضها ولا أريد أن أضيّعه وهو خيط واهٍ جداً.. لا أفهم كيف تنجح فراولين بالحفاظ على مثل هذا الخيط. فمنذ عودتي إلى هذا المنزل، استعادت طقس قصيدة يوم الأحد الذي كنّا نمارسه في طفولتنا، عندما كانت تعلّمني الألمانية.. كأنّ الأمر بدأ بالأمس، وكأنّ الحياة لم تتقدم شبراً...

لكن السنين مضت تشبه بعضها بعضاً في القطارات والساحات والبنوك.. إنني أقفز قليلاً، صرت في ختام القصة ولي رغبة في ذلك أكثر من اللازم.. تتشابه الأشياء كلها، الحروب متشابهة، والمحاكمات متشابهة لمتهمين متشابهين. وكان هنالك محاكمات دون متهمين،

أليس هذا غريباً؟ لكن الديمقراطية تهتم بظواهر الأمور وليس ببواطنها. ما يهمّ هو الطقس في الحقيقة، وما الذي يضرّك إن لم يكن هناك متهمين؟... كل شيء متشابه حقاً، ابتسامات مصطنعة تشبه بعضها على طاولة القوى العظمى التي أوهمتنا بشراكتها.. الشخصيات بارزة الصدر كديكة رومية، ترافقهم زوجاتهم كأنهم مدعوون إلى حفل زفاف. يجتمعون في أماكن مختارة بعناية كالسفارات والمفوضيات ولا سيّما القصور الخاصة. تقام الولائم الشهية ليشبع الوزراء ورؤساء الدول والأساقفة ورجال الأعمال والمبعوثون الخاصون وأعوانهم، وأصحاب المصارف الذين ينتظرون تصفيتهم إما شنقاً أو تسمماً، وأحد الرهبان الإرهابيين الذي يدبّر عملية اغتيال بين الحين والآخر، ويطوّر بذلك ما يسمّى الحضارة، مثلما يقضم حيوان عنيد ساق السنديان بأسنانه الصغيرة.. يذكّرني بما قالته الفئران عندما شرعت تنهش المنبى: (يا إلهي ما هذا العصر؟!).. هكذا فكّر تريستانو، وهو يهذي.. اقتربت من الختام كما قلت لك، ولكني لن أختتم القصة بهذه الكلمات، وإلاَّ لمَ دعوتك إليّ؟ لكي تكتب النهاية فقط؟.. بل أقول إنّ تريستانو ودافني عادا إلى مالافراسكا في إيطاليا بعد أن حدث كل شيء. جلس ينظر إلى السنين المنقضية وكيف تيبّس الزيتون على سفوح التلّ والكرمة قد غزاها العثّ.. اعترف لدافني أنه يحمّل نفسه مسؤولية ما آلت إليه مزرعته.. لا تكن جائراً بحق نفسك، همست دافني في أذنه وهي تمرّ بقربه بينما كان يتابع الشمس وهي تنازع في الأفق، بعينين شاردتين على السهل. داعبت رقبته كأنها تلامس البيانو.. لا تندمْ على النبيذ الفاخر وزيت الزيتون. كانت فكرة المؤسسة

الزراعية التي أردت تأسيسها منذ أعوام رائعة، لكنها لم تكن لتناسبك لأنّ أهميتها لم تكن على مستوى الرسائل التي ألّفناها معاً، كأوراق هيبنوس. تجلّى حلمك الحقيقي في هاتيك الرسائل، فما تزال موجودة وستبقى على الدوام. أما الأرض فقد أوكلتها لذاك الفتى لأنك تعشق الريف عبر شخص وسيط. أردت أن يحبّ الأرض أحد ما نيابة عنك لأنك ولدت هنا ونشأت. أفهم أنك رغبت في رؤيتها خضراء، لكن الحياة تهشّم الأغصان لشدة ظلمها. إنس أمر العنب والزيتون، ما دام أنّ دافني، حبيبة قلبك، معك.. لكن تريستانو لم يكن يفكر بالريف، إنما كان ينظر إلى الأفق، أبعد من أغصان الزيتون المتألمة، ويفكر بهذا البلد الذي حمل السلاح لأجله متسائلاً إن كان يستحق كل هذا العناء. كان يجلس على كرسي قماشي، أهدته إياه دافني في عيد ميلاده، يشبه كرسي المخرج السينمائي، وقد كتبت على مسنده جملة لروزيلا أوهارا: (غداً يوم جديد). ورأى أنه أسوأ مخرج سينمائي يشاهد أعماله قد تدهورت. ثم فكّر أنّ الحياة لا بد أن تحتوي على ما يستحق العناء في سبيلها إن لم تتعرض روحه للشلل، وعليه أن يكافح ضد الكساح الذي يسطو على أيام معينة. فالنبع يبدو جافاً، لكنه قد يعاود النبض حينما تفقد الأمل في ذلك. إن هي إلا نقطة ماء واحدة تنعش روحك حتى تغرق بها فتسحبك إلى حيث يتدفق النهر، بينما تبدو الأرض جافة، فتذهلك الالتواءات الجوفية التي عبرها كي يصل إليك ليقول: إنّ غداً يوم جديد.. نظر إلى السهل حينها فصار خصباً: الكروم والمشاريع الزراعية ومؤسسات الاستثمار لهكتارات لا تُعرف حدودها، غالباً ما يستأجرها الألمان والأمريكان، مع بعض

الاستثناءات للأرستقراطية المحلية لتظهر العادات الرفيعة المستوى. وتذكّر أنه انزعج من إحدى المؤسسات، ليس بسبب الفخر الذي أعطوه لنبيذ لا يستحقه برأيه، بل لأنهم سرقوا لوحة رسام كان مولعاً بفنه أكثر من أي شيء آخر، فوضعوا اللوحة على اللاصقة وجعلوها كاريكاريتية على الطريقة الأمريكية المقززة.. إنني أتسلى بقصّ أمور ليست ذات أهمية. وإذا فكرت جيداً لوجدت القصة كلها دون أهمية تذكر، إلا إذا استثنينا ورطة تريستانو. ولا أعرف إن كانت لدي رغبة بقصّ تلك الورطة عليك. لقد كتبت عن مشكلتي أفضل مني في ثنايا كتابك الذي يوضّح كل شيء، فلمَ أفسد المشروع؟.. أشعر بالتعب وربما أنت متعب أيضاً. سآخذ قسطاً من الراحة، وقد أناديك لاحقاً بهذا الجرس الذي أمرت بتركيبه، يرنّ صوته في أنحاء المنزل، أتريد سماعه؟ صار رنينه كنقيق الضفدع دون أن أتقصّد ذلك، مجرّد صدفة بحتة. قال لي الكهربائي إنّ الأمر يعود لمضخّم الصوت الذي ارتطم بالأرض فتعطّل.. أعطتك فراولين غرفة رائعة. لا تبق فيها، بل اطلب منها أن تنقلك إلى غرفة أخرى. ليست لئيمة الطبع، لكنها لا تعطي أفضل ما عندها من المرّة الأولى.. كأني أسمع أزيز ذبابة، أتسمعه أنت، أم أنّ الطنين من صنع أذنيّ؟

تاام تارام تاام تارام elle avait des yeux des yeux d'opale qui me fascinaient, il y avait l'ovale de son visage pâle de femme fatale qui mi fut fatal[1].. أتسمع زقزقة العصافير؟.. إني أزقزق

(1) الجملة واردة بالفرنسية وتغني: كانت عيناها جميلتين كأحجار كريمة سحرتني، وكان لها وجه غانية عذّبتني. المترجم.

مثلها اليوم من هول السـعادة في هذا الصباح ذي النسـائم المنعشـة. On s’est connu, on s’est reconnu, on s’est perdu de vue, on s’est reperdu de vue, on s’est retrouvé, on s’est réchauffé, puis on s’est séparé[1]... في أيام جميلة كهذه، ينبغي أن ننزل إلى شاطئ عراة أعرفه جيداً أيها الكاتب. إنها أول أيام رياح الجنوب. ما زالت خفيفة، وقد تصبح زوابع فجائية تخرّب تسريحة شعرك. إن هي إلا خطوات معدودة على الشاطئ الرملي صوب غابة الصنوبر حتى تملأ الرطوبة المالحة وجهك على الحال، وتتلذذ بها على شفتيك.. الشمس ساطعة، آه يا للرغبة.. تثيرك الرغبة عند الحالب فيؤلمك تحت حرارة الشمس التي تحرق كل شـيء.. تحرق الرمل والمعدة والشـاطئ المهجور.. فتسـأل نفسـك أين تكون هي؟.. je me suis réveillé en sentant ses baisers sur mon front brilant, ses baisers sur mon front brilant pirimpipim, pirimpipim[2]... تنظرين إلى الأفق وتطرفين عينيك من شدة الضوء، لا يوجد أحد، اخلعي ملابسك، هيا، اتركي ما عليك في أمانـة الشـاطئ يـا جوديتـا! تناديها، فتجيـب غابة الصنوبر في الخلف: جوديتاااا!.. هذا أنا يا جوديتا! أرغب بك يا جوديتا!.. on s›est connu, on s›est reconnu, on s›est perdu de vue, on s›est reperdu de vue, on s›est séparé, puis on s’est réchauffé, pirimpipim, pirimpipim, chacun puor soi reparti dans le tourbillon de la vie, pirimpipim,

(1) الجملة واردة بالفرنسية وتعني: تقابلنا، فتعارفنا، فأضعنا بعضنا، حتى التقينا ثانية، ثم تعانقنا، فانفصلنا. المترجم.

(2) الجملة واردة بالفرنسية وتعني: استيقظت من وقع الشعور بقبلاتها على جبيني الساخن، تاام تارااام تاام تارااام. المترجم.

pirimpipim[1]... إنّ الشهود أغبياء ولا فائدة من ورائهم لأنهم صغار الحجم وجامدين كحبّ الجوز. أما هو قاسٍ كالعصايا جوديتا.. أتفتحين ذراعيك رغبة في الرقص؟.. je l'ai revue, un soir là-la-la, elle est retombée dans mes bras, elle est retombée dans mes bras ...[2] ما أكبرها ساحة الرقص على هذا الشاطئ! تسقط مرة أخرى بين ذراعيك وأنت ترقص في الاحتفال، فتأتي لترقص معك..ها قد وصلت أخيراً أيتها الحمقاء.. لقد ضجرت ولم أعد أحتمل، إني أتألم، فلنذهب إلى القرية على الهضاب، لا أهتم لهذا الحفل.. فتقول لها: لم لا نذهب إلى الكوخ بين الأشجار المزهرة؟ تااام تارام تاام تارام.. كان هذا الشاطئ على ساحل البروفنس. فما رأيك أيها الكاتب، هل كان ساحلاً بروفنسياً؟..من المحتمل أن يكون في جنوب فرنسا، وقد لا يكون كذلك أيضاً.. لا يهمّ.. فأنا سعيد كعصفور هذا اليوم، أتسمع زقزقة العصافير؟.. يدخلان إلى الكوخ حيث مامن داعٍ لبسط منشفة. فحرارة الكوخ معتدلة بالنسبة لحرارة الساحل. تعانقه قائلة: آه.. أنت تقتلني يا كيري!.. أين كنت يا جوديتا الغبية؟ لماذا تأخرت في عودتك؟.. تقابلنا، فتعارفنا.. لم تسمّينني كيري يا جوديتا الغبية؟ أنا لست كيري، كيري كان عمك.. حقاً يا كلارك، لطالما أردت أن أدعوك تريستانو..هيّا، كفى، هيّا pirimpipim, pirimpipim, quand on

(1) الجملة واردة بالفرنسية وتعني: تقابلنا، فتعارفنا، فأضعنا بعضنا حتى التقينا ثانية، ثم تعانقنا، فانفصلنا.. تاام تارام تاام تارام.. ومضى كلٌّ منا في حال سبيله في دوامة الزحام، تاام تارام تاام تارام. المترجم.

(2) الجملة واردة بالفرنسية وتعني: رأيتها مجدداً ذات مساء، وسقطت بين ذراعيّ، سقطت بين ذراعيّ. المترجم.

s›est connu, quand on s›est reconnu, pourquoi se perdre de vue? Et quand on s›est retrouvé, quand on s’est réchauffé, pourquoi se séparer?...[1] هل لديك إجابة أيها الكاتب؟.. ليست لديك ولا لديّ.. وكيف تجيب وأنت لا تعرف شيئاً عن تريستانو؟ أنت تعرف أني أشعر الآن بحماس ذلك اليوم.. أجل، الآن بينما تنهشني الغرغرينا وقد وصلت إلى الحالب. يا للرغبة نفسها. ألا يبدو لك الأمر عبثياً؟.. أتفهّم ما يبدو لك، لكن الرغبة تظلّ نفسها بينما يتلاشى الوجود برمّته ما إن نموت.. أتعجز عن تخيّل كيف يموت الجسد وتبقى الرغبة؟ قل لي بربك ما الذي تفهمه أنت؟ وما الذي تعرفه عن أي جسد آخر؟ عن جسدي مثلاً..

في أي يوم نحن؟.. لست ميتاً.. كانت عيناي مغمضتين فحسب لكني لم أمت. تحلَّ بالصبر..اعتدل مزاجي اليوم بعد أن هبطت حرارتي، فلن أرى أي كابوس. هل حدثتك عن الكوابيس؟.. لا تمزق ما كتبت، فالحياة تحتوي على كل شيء، لا سيّما حياة الأبطال، حتى الكوابيس موجودة.. أتسمع هذا الصفير الذي أصدره؟ يخرج صفير من حلقي لا إرادياً عندما أتنفس. لا تقلق، لم تحن ساعتي بعد وليست في المدى المنظور. علينا أن نتحلى بالصبر معاً.. هل مضى العاشر من آب؟ أخبرني عندما نقترب من هذا اليوم، لا تنسَ.. لقد نمت كثيراً حقاً، وربما لا... أحياناً تمرّ سنوات طويلة في دقيقة نوم واحدة.. فراولين توفّر بالمورفين لأنها لئيمة، وتظن أنها تؤلمني لأنها ساذجة.. في بعض الأحيان تبدو الذكريات كأنها مصنوعة من

(1) الجملة واردة بالفرنسية وتعني: تاام تاراام تاام تاراام، لماذا أضعنا بعضنا حين تلاقينا ثانية، ولماذا افترقنا بعد عناقنا؟. المترجم.

الجلاتيـن، إذ تتلاصـق فيهـا الأشـياء كأنهـا هلاميـة، فتـذوب وتختلط لينشـأ منهـا وجـه مـا.. (قفـي أيتهـا الغبية، قبضت عليك متلبسـةً، ألم تعرفينني؟ هذا أنا، ألا ترينني؟ انتظري لحظة)... وحين تبتسم.. (حسناً لقد عرفتني).. لكنها تطرف عينيها وتبتسم بشماتة.. كان لديها رموش طويلة، وظلت ابتسامتها الخبيثة على حالها رغم التغير الذي طرأ على فمها..يا للغرابة! حتى وجهها تغيّر، كأنه شمع ساخن يتشكل لوحده ويتبـدل متى أراد.. ومـاذا يريـد هـذا الآن؟.. إنـه نجم سـماوي ثاقب توفي بعد صراع مرير مع سرطان الشرج.. وفي لحظة واحدة تتحول النجمـة لتصبـح كيـري، الضابـط الأمريكي الذي كان معك في الجبل، إنـك ترينـه جيـداً. حتـى تريسـتانو يراه كأنـه رجل آخر، عندما كان هو الضابـط كلارك ذاتـه، واتحـدا فـي كيان واحد فأصبحا شـخصاً واحداً في النهاية. رأى البعض أنه توأم لممثل أمريكي يشبهه كثيراً، بناصية برّاقة وجبهة عالية ولا ينقصه إلا الشارب كي يكون هو.. وفي ذلك اليوم، خلال الفجر الشـاحب، كان ينتظر مختبئاً خلف صخرة، على أهبّة الاستعداد، لكنه يبتسم كأنه ينتظرك ليقص عليك حكاية، وتبادلينه الابتسامة، فمن الغريب أن تلتقيا هكذا، بعد وقت طويل، وهو ما يزال هناك، في نفس المكان، خلال الفجر الشاحب. وما من شك أنه لم يتحـرك، فالرجـال لا يتحركـون، بـل يظلّـون صامدين طويلاً، إلا أنهم لا يشعرون بذلك. نحن نشبّه الأمر بأنه تدفّق دائم يتبخر شيئاً فشيئاً. لكـن اللحظـة تبقـى ثابتـة علـى حالها في إحدى أنحاء المكان بشـكل غرائبيّ، كأنها طيف لصورة فوتوغرافية، عليك أن تعرف كيف تراها. لكنها موجودة، صدّقني..

حـدث أن التقـى بهـا فـي آخـر المـرج، وخلفها بيـت ريفي.كان

يحمل منظاره الفلكيّ على صدره، لأنه وصل بمعجزة إلى الجبل دون سلاح.ويرتدي جزمة ضخمة وبنطالاً جلدياً يصل إلى ركبتيه، وفوق كتفه رشاش يلامس شعره الأسود المرسل على رقبته. أخذ يرتعش. أعجز عن وصف الشعور بالمفاجأة، إنه كلهيب يستعر في الصدر ويفجّر الرأس. صرخ: دافني! فلم تلتفت، كانت تتحدث مع أحد الجنود.فصرخ ثانية: دافني! وراح يركض نحوها. فالتفتت على وقع الخطا، والمسدس متأهب في يدها. نظرت إليه بعينين متسعتين من المفاجأة، وكان لونهما أزرق حاد، وبدا وجهها مضحكاً.. قالت: اسمي مارلين.. ماذا تريد؟.. كانت تتحدث بنبرة من اعتاد على القيادة ولم تكن تجاوزت العشرين عاماً بعد.. فتلعثم في كلامه: وصلت لتوّي من اليونان، ومهمتي تأمين الاتصالات مع الحلفاء. فقالت: أنا أمريكية، وبوسعك أن تدعوني بالكابتن ماري. قال: يليق بك اسم روزاموندا.. فغضبت: لا تمزح. من هي روزاموندا؟.. أجاب: إنها معزوفة لشوبرت..

أرادت فراولين أن تضع لي الساعة فوق الخزانة، لأني أسألها عن الوقت كثيراً. أما هكذا، فما عليّ سوى أن أستدير لأعرف كيف يمضي النهار. أجبت أنّ دقّات الساعة تزعجني. لكنها لم تستسلم، فقالت إنّ الجرس الزجاجي ليس له صوت، وحتى مريض السل لا يشعر به.. مريض السل لا يشعر بشيء، أما أنا فأسمع كل شيء. في الليل أسمع همهمات العثّ الذي ينهش الخزانة، ضجيجه لا يطاق ويبدو كصوت في عمق مغارة.. صُنع خشب الخزانة من شجر الكستناء الذي يتلذذ به العثّ كثيراً، وكلّما كان الخشب عتيقاً وجد العثّ فيه نكهة خاصة. قلت لها إني أفهم أهواء العثّ، اسألي مجرباً، انظري إلى ساقي..

وأميّز كل أنماط الضجيج، لديّ اتصال مباشر مع الأعماق، أسمع حتى دبيب النمل الذي يمشي بسيقان أخفّ من الوبر.. فقالت نكاية: إنك تتجرع الكثير من المورفين، إنها الحقنة الثالثة التي أعطيك إياها منذ البارحة مساءً، لذا ستسمع ما هو أدقّ من النمل. عليك بالصبر إذا ما أزعجتك دقات الساعة. وطالما أنّ هنالك أحد يصغي إليك النهار كله، فاسأله عن الساعة، لأني مشغولة جداً.. كم هو لغز صعب! فأعمال المنزل تهتم بها زوجة أوغستينو، والأغراض يأتي بها بائع الجملة. ما يشغلها هو إعطاء الأوامر لمن تلتقي به صدفة.. هل أعطتك الأوامر أيضاً؟.. عموماً إن كنت أقضي النهار بصعوبة، فالليل أسهل بكثير. عند منتصف الليل تمرّ طائرة، ربما لم تشعر بها لأنك تنام باكراً. ثم إنها في الأعالي، وطنينها بعيد، وأنا أسمّيها طائرة منتصف الليل.. تأتي بموعدها على الدوام، ونادراً ما تتأخر. إنها تطرق الثانية عشر ليلاً أفضل من هذه الساعة الغبية بدقّاتها المملة.. بوسعك أن ترى الطائرة من نافذة غرفتك، لكن عليك انتظارها لأنها تسبق صوتها. إنها عبارة عن ضوئين صغيرين متوازيين تمرّ بهذا الموعد منذ عشر سنين. رأيتها أول مرة في مساء عودتنا الأخيرة إلى هذا البيت. انطلقنا في ظهيرة يوم من شهر آب من ساحة بلاكا، حيث كانت دافني تتشقلب على أغصان شجرة البرتقال، وتوسلت إليها أن ترافقني فسافرنا معاً.. في تلك الليلة لم يغمض لي جفن من شدة التعب. جلست قرب النافذة لأدخن، ورأيت طائرة تقلع من الجنوب وتأخذ منحى الغرب عندما تصبح فوقنا، فوق البيت تماماً، لتدور صوب الساحل، فتصير فوق البحر حالاً.. أتخيلها تمرّ فوق سردينيا، وأتخيّل أحد الركّاب يرى من النافذة أضواء صغيرة في الأسفل، ويتساءل من يسكن تلك الأضواء،

في تلك القرية وفي ذلك المنزل تحديداً. من المستحيل أن يعرفني، كما لا أستطيع أن أعرف من يكون هذا المسافر المتسائل.. وتمرّ الطائرة فوق إسبانيا، وربما فوق بانكيرفو بالضبط. حتى في بانكيرفر قد يكون هنالك أحد الساهرين في منتصف الليل وينظر إلى هذه الطائرة. ثم تمرّ فوق البرتغال، فالمحيط أخيراً.. لا توجد حلول أخرى يا عزيزي، عليك أن تعبر الأطلسي لتصل إلى أمريكا حالاً. وتكون الطائرة رشيقة دائماً إذا أرادت الذهاب إلى أمريكا. كان جديّ يقول لي إنّ والدي كان يفكر في متابعة أبحاثه هناك ليصبح عالم أحياء مشهوراً في العالم كلّه... أمريكا!... كم كانت أمريكا جميلة حين حلم بها والدي! كان يعلم كل شيء بخصوص المروج الواسعة والهنود الحمر وبنيامين فرانكلين وشارلي شابلن ووالت ويتمان ومبنى الإمباير ستيت والموسيقى. أخبرني جدي أنّ موسيقى الزنوج لم تكن مستحبة ولم يقدّرها أحد من الجهلة هنا. لكن والدي كان لديه الفونوغراف وتصله الأقراص من أمريكا مباشرة. وبعد وفاة والدي، علّمني جدي كيف أعشق تلك الموسيقى حين لم يعد سيفه الغاريبالدي يستهويني، فابتدع لعبة لصباح أيام الأحد.. كان يدخل على رؤوس أصابعه إلى مكتب والدي، كأنّ الأخير مايزال منهمكاً بالمكروسكوب ولايريد إزعاجه. ثم يضع قرصاً لعازف بوق فيشعر بالحيوية. وكان يمسّد شاربه الأبيض متابعاً الإيقاع قائلاً: (اسمع إلى نبض الحياة في آلة هذا العازف النفخية.. إنّ الحياة مجرّد أنفاس أيها الفتى. في البدء كان الكلمة، ومن يدري كيف فهم الرهبان هذه الآية، لكن الكلمة تنشأ عبر التنفس.. عليك أن تهوى الحياة دائماً، لأنّ الفاشيين فقط يحبّون الموت!).. أيها الكاتب، إذا نظرت إلى المكتبة، بالقرب من الطاولة

تحت النافذة، ستجد منظار جدي الفلكي ومكروسكوب والدي.. يا للغرابة! درس أبي الكائنات القريبة جداً بالمكروسكوب، وجدي بحث عن تلك البعيدة بالمنظار. كلاهما يستخدم العدسات، لكننا نكتشف الحياة بعين مجردة، على مستوانا، ليست قريبة جداً ولا بعيدة كل البعد.. أحبّ والدي نيويورك كثيراً ومات قبل أن يزورها.. حتى أنا رغبت بالذهاب إليها كثيراً، لكني لم أفعل. لم تحن لي الفرصة يوماً.. أنت، هل ذهبت إلى نيويورك؟.. يا للسؤال، ومن لم يزر نيويورك في هذا الزمان، خاصة في أوساطكم الثقافية.. حبذا لو ركبتُ تلك الطائرة في مساء ما.. عذراً، عمّ كنت أتحدث؟ أخشى أنني قفزت من موضوع لآخر دون مقدمات أو ربط منطقي، وربما كنت أغفو. فالمرء في نعاسه يدلي بأحاديث لا مغزى لها. حبذا لو استكملنا لاحقاً، لدي انطباع أنّ الوقت متأخر.. هل بوسعي أن أدخّن سيجارة دون أن تلاحظ فراولين؟.. افتح النافذة، فالطقس حار جداً..

سمعت أنك لم تقبل بالظهور في عالم الهشتك بشتك[1] أبداً. كم أنا معجب بك. إنه عالم مليء بمن يدعيّ المعرفة الذين يتحدثون بترهات لا معنى لها: ما الذي يرتديه هذا الوزير أو ذاك، وإن كان من الأفضل أن تنتخب هذا المرشّح أو ذاك، وما الذي سيحدث

(1) «الهشتك بشتك» ترجمة غير حرفية لمصطلح البيبو بيبي الساخر (Pippopippi) الذي أطلقه تابوكي في هذه الرواية على عالم الاستعراض التلفزيوني وما يروّجه في المجتمع من خلاعة وانعدام للأخلاق وأفضلية التسلية على الأمور الأساسية. ويرى الكاتب هذا العالم كظاهرة غريبة وجديدة تفرض نفسها كإله لا يراقبه أحد ويتبّعه الناس خاضعين له بعد أن تفشّى في حياتهم اليومية. ولا بدّ أنّ الكاتب ينتقد برلسكوني، الزعيم الإيطاليّ المعاصر، وصاحب القنوات التلفزيونية، والمتّهم الأول بأكبر قضايا الكساد الاقتصادي والفساد السياسي والانحلال الاجتماعي. (المترجم)

بثقب الأوزون، وما الذي سيجري لو كان العالم مربّعاً.. كم من مرة دُعيتَ إلى عالم الهشتك بشتك، لا سيّما بعد الجائزة التي حصدتها روايتك في الولايات المتحدة. وهذا الأمر بغاية الاعتيادية: في البداية لا يعيرونك أدنى اهتمام، ثم تصبح نجماً إذا نلت جائزة في الولايات المتحدة، وحينها لا يمكنك الإفلات من عالم الهشتك بشتك.. لقد قدّمتَ تريستانو على أنه بطل في روايتك، لكنك تجعله يخاف أيضاً وهذا جيد! فالبسطاء يجهلون أنّ الخوف لا يستثني الأبطال أيضاً. ثم ينتصر تريستانو على خوفه. وتتجلى مهارتك عندما جعلته ينتصر على مخاوفه حينما تغلّب الخوف عليه.. بالنتيجة، ينتصر البطل على الخوف لأنّ الخوف يتغلّب عليه. لم تصب الهدف تماماً، لكن الفكرة خداعة.. إنك شخص معقّد، ولا يستسلم أحد لمكائد الهشتك بشتك إذا كتب رواية كروايتك.. إنك تشبه السيناتور لأنك تمتاز بطريقة صارمة في تجميع أنماط أدبية بشكل ذكيّ. عندما أفكر فيك أراك ترتدي بردة رومانية بيضاء، مثل سينيكا إن لم أخطئ، نظراً لطريقتك بالكتابة، لكن سينيكا لم يكن سيناتوراً ربما..هل تعتقد أنّ عدم ظهورك في الشهتك بشتك يعني أنك لم تظهر فيه أبداً؟.. اعذرني إن كان سؤالي خبيثاً، لكن الجميع يتحدثون عن رفضك للظهور، فأصبحت سيرتك على كل لسان. بالنتيجة كان الظهور يساوي عدمه حقاً.. ألم تفكر يوماً، أيها الكاتب العزيز، أنه عالم غدّار سواء رضخت لقوانينه أم لا؟.. أعرف ما الذي قالوه عنك في برنامج على الهشتك بشتك تسمّيه فراولين «الدواء المسهّل».. إنني أعلم بهذه السخافات حتى لو لم أتابعها. في الشهر الماضي، بينما أستلقي على السرير، أطلّت فراولين من الباب وقالت: (أيها الفتى، البرنامج المسهّل هذا المساء

تحدّث عن الكاتب الذي كنت تقرأ له البارحة.. حلقة اليوم كانت بعنوان «الشجاعة في تغيير القرار». قدّم المذيع ضيوفه وقال بنبرة هادئة: لقد دعونا أيضاً الكاتب الشهير الذي نال جائزة عن روايته التي تتحدث عن الشجاعة، لكنه رفض الدعوة لسوء الحظ. نحن بانتظارك أيها الكاتب الشهير، ولا نريد أن تخاف منا، فنحن طيبون. كن شجاعاً وتعال). وما شأني أنا؟ سألتها.. فأجابت: (ألم تقل لي إنك بحاجة إلى شخص يصغي إليك، وينبغي أن يكون كاتباً؟) وأغلقت الباب قبل أن أجيبها..

أشعر بصحة جيدة هذا اليوم، وسأروي لك كل شيء بتفصيل منطقي. إنها الفقرة الأقوى في كتابك، لذا اصغ واكتب، هل أنت مستعد؟ حسناً.. الفجر، تريستانو وحيداً في ذلك الحرش اللعين وخائفاً. فحتى الأبطال يخافون، هذا ما قلته أنت أيضاً. ولم يكن يعرف أنه بطل حينها. كان مختبئاً خلف صخرة مقابل ملجأ القائد، ووحيداً لأنّ جميع رفاقه قد نزلوا إلى الوادي لينفّذوا عملية أخرى. وقد أعطاهم نفس القائد هذا الأمر، فكان هناك ثكنة للفاشيين فيها ذخيرة وسلاح وعليهم أن يهاجموها. وبقي تريستانو وحيداً في ذلك الفجر الشاحب داخل تلك الغابة اللعينة. ولم يكن الفجر كعادته زاهياً بلونه الزهري والأزرق، بل لكأنما كان مصمَّماً لأيام التعاسة والمآسي. كان عليه أن يحب امرأة ويعانقها على السرير، لا أن يتوارى عن الأنظار خلف صخرة ويرتعش خوفاً وبرداً.. كم عددهم؟.. لقد اعتادوا على الحيطة والحذر، ولا يتجمعون بأعداد قليلة لينفّذوا الغارة. قد يكونون عشرة، عشرين، وربما سريّة بأكملها. سمع تريستانو صوت رصاص ألماني وبعض الصيحات، تلاها هدوء مقبرة في فجر يبزغ بارتباك،

لأنّ النهار عدو تريستانو اللدود، فهو وحيد خلف تلك الصخرة وهم كثر. هبط السكون فوق المذبحة. لماذا يتريثون؟.. لمَ لا يخرجون؟.. ماذا يفعلون في الملجأ؟.. ربما يبحثون عن خرائط وخطط ووثائق. لقد أحسنوا صنعاً باغتيال القائد الأخطر في كل المنطقة، وهو قائد عظيم وليس شخصاً اعتباطياً. ذلك القائد لم يكن ثائراً عاطفياً ذا إرادة طيبة، بل كان عسكرياً مخضرماً. حضر الحرب العالمية الأولى، وكان ضابطاً ذا مسؤوليات قيادية عليا في عام 1915. إنه ضليع بوضع الاستراتيجيات، يخافه النازيون لهدوئه وخبرته وشجاعته، وقد تسبب لهم بخسائر فادحة، فصدر الأمر بتصفيته من القيادة الألمانية العليا في إيطاليا. عليهم أن يغتالوه بالتحديد دون الرجال جميعاً. فإذا قطعت رأس الثورة لا تبقى للجسد أهميةً، بل يتوه الثوار في الأرض ويفقدون تنظيمهم. واستطاعوا اغتياله، لا بد أنّ أحدهم أخبر عنه، وإلاَّ كيف استطاعوا الوصول إلى الملجأ؟ تريستانو يعرف مكان الملجأ، وهو المقرّ العام أيضاً. إنه بيت مهجور يتكون من أربع غرف، وفي الباحة يوجد المطبخ حيث تعقد الاجتماعات وتناقش الإجراءات وتحضّر الخطط وتبلّغ الأوامر. وهناك غرفة مجاورة حيث ينام جنديان من الحرس الملكي، وهما شابان أنيقان وعديما الخبرة لا توكل إليهما المهام. إنهما الحارسان الشخصيان للقائد. وفي الطابق العلوي يوجد ما يشبه مستودع التبن، حيث كان المزارعون يجففون التبن والكستناء، وغرفة ينام فيها القائد. حدث تبادل لإطلاق النار في الطابق السفلي ورأى تريستانو ضياء الرصاص يظهر من إحدى النوافذ بقرب الباب الخشبي المخلوع لذلك المنزل الخرافي عند تخوم الغابة. لِمَ لا يخرجون؟.. خاف تريستانو، خلف تلك الصخرة. إنّ الأبطال لا

يخافون، لكنه لم يكن يعرف حينها أنه بطل. إنه مجرد رجل وحيد يحمل رشاشاً سلبه من ألماني مقتول. كانت يداه مجمدتين، وقدميه أيضاً، ويبدو عاجزاً عن التفكير حتى لو كان رأسه يفكر بسرعة عجيبة، وعيناه موجهتان بثبات على الباب المخلوع، وينظر حوله من حين لآخر، ولا يرى شيئاً من المشهد الذي يحيط به. يلاحظ أنّ الضوء يزداد كثافة، وسيطلع النهار فوقه بعد قليل. أخذ يفكر متى سمع الرصاص.. منذ عشر دقائق أم ساعة؟.. نام تريستانو في البيت المتاخم للغابة حيث كان الفلاحون يرعون الخنازير. اختار أن ينام هناك تلك الليلة على النومِ في الكهف أسفل مجرى النهر حيث ينام الثوار. لماذا؟ يعجز تريستانو عن شرح السبب، لماذا، لماذا، لماذا؟...

لماذا، لماذا، لماذا. لقد جئت حتى هنا لتسأل عن أسباب حياة تريستانو. لكن الحياة لا تحتوي على أسباب. ألم تسمع بذلك يوماً؟.. أنت، لِمَ تكتب؟.. هل أنت من أولئك الذين يبحثون عن الأسباب، ويرغبون وضع الأشياء في مكانها الصحيح؟.. أخبرتُك بأحد الأسباب: أنه التقى بمارلين الأمريكية في الجبل، التي أسماها منذ البدء بروزاموندا ويناديها بالحسناء أحياناً. بل أكثر من ذلك، كان يقول لها، عندما ترسل شعرها على رقبتها بعد أن تصففه بضفيرة خلال النهار: افردي الضفيرة يا مريم المجدلية، افردي الضفيرة أيتها الحسناء.. أترغب بمعرفة مزيداً من الأسباب؟ مثلاً لماذا كان في الجبل، وكيف، ومتى، وما الذي حلّ بدافني.. إنك فضولي جداً أيها الكاتب! بمَ تهمّك هذه الأسئلة؟.. ثم إنّ ما حدث كان منطقياً. قل لي بربك ما الذي كان بوسعه أن يفعل، وقد أصبح رجلاً شارداً وجندياً مولي الأدبار، وعاد إلى بلده، بعد أن أعاد بيترو بادوليو الجميع إلى

بيوتهم؟ كان يستطيع أن يختار بين الانزواء في مستودع التبن تحت القش ليساعد الألمانيين في الزراعة، وبين العودة إلى طاعة ملكه في برنديزي.. وهو لا يحبّ المكوث تحت القش. لو كنت في محله، هل ستؤيد ملكاً ترك شعبه في أشدّ اللحظات صعوبة يأكل فتات الطعام وخضروات نافقة؟.. على أي حال، فعل تريستانو أمراً مشابهاً بانضمامه لصفوف المقاومة في الجبل، فليس بفتات الخبز يحيا الإنسان.. لكني قلت ذلك في وعي ما بعد الحقنة.. أتعلم أنّ فراولين أعطتني حقنتين؟.. إنها هكذا، تقتصد يوماً وتبذّر بآخر، لأنّ مشاعرها تهتاج.. إنها فظّة، أرأيت وجهها الغليظ؟ لكنها برأيي بكت دوماً في داخلها دون أن تبكي في الظاهر. ومن يدري كيف تنجح في ذلك؟ لا أعرف إن كان هذا من طبعها أم لأنها ألمانية. يبدو لي أنّ الألمان دمعهم عزيز، يجيدون البكاء في أعماقهم دون أن يتباكوا أمام الآخرين. يكفي أن تقرأ بضع ما كتبوه.. نحن مختلفون عنهم، ربما نبكي في الظاهر كثيراً ولا يتغير شيء في أعماقنا.. إنه أمر هيدروليكي. حتى الروح تخضع لقوانين هيدروليكية برأيي.. أضعت الخيط مجدداً.. أين كنت؟.. إنك ترغب أن تعرف لماذا وكيف ترك دافني في اليونان.. اصبر قليلاً.. أكان عليه أن يأخذها معه إلى الجبل وبلاده تعاني الأمرّين؟.. وبم تهمّك دافني؟.. دافني هي الشيء الوحيد الجميل في هذه القصة، والباقي مصيبة بحتة. ألا توافقني على ذلك؟ انظر حولك إذن، واسأل نفسك لماذا، ولحساب من، ذهب إلى الجبل ومعه منظاره.. ألم تكن تعرف هذا ولم تتخيله يوماً؟ يسرّني أن أقوله لك. إنّ هذه الأشياء تستهويكم أيها الأدباء لكي تزركشوها أكثر.. حمل تريستانو الرشاش إلى الجبل، وطبعاً أصبح البطل الذي تعرفه

بفضل ذاك الرشاش. لكنه كان يحمل منظاراً فلكياً يحبه كثيراً لأنه يخصّ جده. اكتشف السماء بتلك الآلة عندما كان طفلاً، وأخذها معه ليرى النجوم من قمم الجبال، فكلما كنت في الأعلى رأيت النجوم بشكل أفضل. أحد البريطانيين كان يكتب كتباً مثلك، قال إننا نعيش جميعاً في حياة أشبه بمجاري الصرف لكنّ قلّة منّا فقط ينظرون إلى النجوم. وربما كان تريستانو من بين الراغبين بالنظر إلى النجوم لأنّ بلاده كانت كمجاري الصرف تماماً.. وأنت كيف تبدو بلادك الآن؟.. هل تعجبك؟

تذكرت مقطعاً آخر من قصيدة فراولين. إنها قصيدة طويلة، تقرأها عليّ على مراحل حتى مللتها.. رأيت ضفدعاً يقفز من حافة الخندق حاملاً أفضل ما عندي بعيداً، كان مخلوقاً كريهاً ودبقاً، لونه أبيض وجلده من مخمل، سرق مني قلادة قديمة وحملها بلعابه، في القلادة صورة يغفو بها صوتها.

انقطع عرير الجنادب، ولا بدّ أنك مرهق من الكتابة وقد حلّ الظلام. لكنك جئت من أجل الكتابة، أليس صحيحاً؟.. وأنا تعبت من الكلام أيضاً، لكنني دعوتك من أجل هذا. إذا دخلت فراولين وأزعجتنا قل لها إننا على وشك الختام. فلتعطنا عشر دقائق زيادة، فلا أعلم إن كنت سأمتلك الشجاعة في الغد لقصّ المزيد. وأنت على دراية أكثر مني بأهمية الشجاعة. لقد أدخلتها في كتابك، وفزت على جائزة بفضلها إن لم أخطئ. إن أخرجتُك الآن ستقضي الليل ساهراً بحال أسوأ من حالي، خائفاً أن لا أفلت الخيط في الغد. يا لها من عملية احتيال. لقد عبرت أميالاً لتشتم رائحة المعقمات والغرغرينا، ثم أضيّع الخيط فوق ذلك.. اطمئن، لم أضيّع الخيط. الباب المخلوع

يُفتح فجأة، وفي داخل البيت ظلمة، فلا يفلح تريستانو برؤية شيء.. هيّا، اخرجوا أيها الأوغاد. هاهو الأول. إنه ستيفانو.. تريستانو يعرفه جيداً. كان شخصاً طيباً يعمل كبوّاب لمدرسة القرية في الوادي، وأقنعه بصدقه فوثق به. لكنه يرتدي حينها القميص الأسود والقبعة ذات الريشة.. ينظر ستيفانو الوغد من حوله بحذر.. يخشى أن يكون مكشوفاً. لا يوجد أحد، فيومئ صوب الداخل، ويخرج ألماني ثم اثنان ثلاثة فأربعة.. أطلقْ، يقول تريستانو لنفسه، إنهم أربعة أوغاد فقط. إصبعه يضغط على زناد الرشاش فاقداً صبره، لكنه يضبط نفسه. فلو كان هنالك المزيد في الداخل للقي حتفه بكل بساطة. وسيقتلونه هؤلاء الخمسة إن رأوه وهم يتقدمون.. ما العمل؟.. هذا الانتظار يشبه لعبة القمار. ارم الأوراق وأطلق النار يا تريستانو. في تلك اللحظة يسمع صوتاً أنوثياً ساحراً وعتيقاً يغنّي، بطريقة غريبة، أغنية قديمة لنوم الأطفال. هل يعقل أن تعثر على امرأة تغنّي في غابة جبلية شهدت على مذبحة دامية عند الفجر؟ وهل كان الصوت موجوداً حقاً؟.. تريستانو يسمعه، يذكر ما قرأه في الكنيسة عن صوت يأتي من أعماق الذات ولا يسمعه أحد سواه. يسمّيه آباء الكنيسة بصوت الملائكة، لا يسمعه إلا من أراد سماعه.. يقول تريستانو لنفسه: إنه صوت عتيق وساحر.. (كان لدي حصان صغير يعدّ خطوات القمر، كان لدي حبيب وسيم تخلّى عني، كم أنا تعيس الحظ في الحب).. ومن المفهوم أنها أغنية لنوم الأطفال. وفي تلك اللحظة يبدأ كل شيء بالتموج، المرج والجبال والغابة كأنها في مهد تهزه امرأة خفية لا يتجلى إلا صوتها الطروب. (كان لدي حصان بلا ذيل، وكنت أربطه بحبل، وأشدّه إلى الحبل حتى أعلّقه، كما يحدث لرجل عاشق)..يرى تريستانو الأشياء تتموج

من حوله.. خرج جميع الألمان إلى الفسحة، وتجمعوا مندهشين كأنّ صوت المرأة التي تهزّ مهد المشهد بأكمله يسحرهم.. (نم أيها الطفل، نم في حضن جدتك).. هكذا غنّت الحورية بصوتها، والجنود الألمان مسحورون بها، يغلبهم النعاس والهذيان، جامدون بلا حراك واحداً بجانب الآخر كأنهم يلتقطون صورة عائلية، أو كنصب لجندي مجهول. يطلق تريستانو العيار الأول، ثم الثاني فالثالث، وهو يغني مرافقاً ذلك الصوت الذي أنقذه.. (نَمْ أيها الطفل، نَمْ في حضن جدتك).. يرجع صدى النار في الغابة كالريح تقفز من جانب لآخر، ومن جبل لواد، ثم تختفي بعيداً كبرق يتبدد في غياهب المدى.. ويصبح تريستانو القائد الجديد لكتيبة الثوار، ويأخذ رتبة القائد القديم الذي اغتاله الألمان. لكنه لا يعرف شيئاً آنذاك، فهو هناك حراً من أسر الصخرة التي اختبأ خلفها، وشعاع الشمس الطالع يضفي عليه هالة سينمائية تليق بالأبطال. هيا تريستانو، تقدّمْ نحو الفرائس المتهاوية، ضع أقدامك على رؤوسهم وارفع رشاشك عالياً كالفاتحين. نريد أن نذكرك هكذا، إنها ذكرياتك، إننا نكتب تاريخك.. بوسعك الذهاب أيها الكاتب، يكفي ما أنجزناه اليوم فالوقت متأخر.. لقد سمعت ما أردت سماعه.

إنّ الحياة لا تخضع لترتيب أبجدي كما تتوهمون، بل منثورة ومشتتة أغلب الظن مثل ذرّات الطحين. المشكلة الأساسية تكمن في تجميعها. تشبه كومة الرمل، فأين توجد الحبّة التي تسند الكومة برمتها؟ إنها في قمة الكومة، تبدو مسنودة من كافة حبّات الرمل، لكنها تسند الأخريات جميعاً، لأنّ الكومة لا تخضع لقوانين الفيزياء. ستتهاوى جميع الحبّات إذا ما نزعت تلك الحبة التي ظننت أنها لا

تسند شيئاً. فينفرط العقد وتتناثر حبّاته. ولا يسعك إلا أن تخلطه بإصبعك، فتتشكل أمامك دروب لا توصلك إلى شيء. وهكذا تظلّ تخطط الدروب ذهاب إياب دون أن تعثر على تلك الحبّة المباركة التي كانت تسند الأخريات.. ويوماً ما يتوقف الإصبع من تلقاء نفسه بعد الكلل والملل، ويبقى أثره الغامض على الرمل، كلوحة فوضوية بلا مغزى. فيراودك الشك أن تكون تلك الخطوط هي المعنى وراء كل هذا العبث.. هكذا الحياة!

عليّ أن أصحّح شيئاً. أخبرتك عن ذلك الشاطئ الذي رأيته في الحلم. لم يكن يخصّ روزاموندا بل كان يتعلق بدافني. الآن أتذكره جيداً.. دخل تريستاتو مع حبيبته دافني إلى الكوخ. بوسعي أن أؤكد ذلك، فلدي برهان دامغ لم أفكر به من قبل، وهو ثمرة البطّيخ.. كانت هناك بطّيخة رائعة مفتوحة من النصف في الكوخ، ومنصوبة على الطاولة الخشبية حيث وضعا ملابس البحر. أرى الحلم كأني أعيشه الآن: على الطريق المؤدية إلى الساحل، كان هناك رجل يبيع الدراق والشمّام والـ«karpuzhi" على مصطبة. هاهي الكلمة تعود إلى ذهني. دافني تحب "الكربوزي" كثيراً، إنه يعني لها اليونان، بلادها. ففي اليونان يصنعون حتى المثلجات من البطّيخ. أذكر أنني قضيت رحلة صيفية في كريت للمرّة الأولى معها، وكان الساحل واسع ولونه أبيض، تفوح في أجوائه رائحة البطّيخ الذي وضعه البائع تحت الجليد المطحون على العربة عند الطريق المؤدية إلى الشاطئ.. قضيا أجمل أوقات الظهيرة على ذلك الشاطئ.. وفي المساء كان تريستانو يطارح دافني الغرام، بعد أن يطاردها في الماء ويلعق جلدها ليستطعم الملح.. ثم يأكلان قطعة من البطّيخ.. من المستحيل أن تكون روزاموندا،

فمارلين لا تحب البطّيخ. لا يجدر بالأمريكان أن يفضّلوا فاكهة مليئة بالماء لا تحتوي على فيتامينات.

سمعت ما همست فراولين بأذنك.. أن لا تكتب شيئاً مما أقوله تحت تأثير المورفين. لا تكترث لكلامها! اكتب كل شـيء! ولا تعر اهتماماً للمورفين! اجمع ما بوسعك جمعه من حبوب الرمل، وانشرها كفقرات متشظية. إنّ هذياني جزء مني لا أكتمل إلا فيه، وأظل ناقصاً دونه...

أتعرف قصيدة تتكلم عن أم تتّشـح السـواد وتبكي ابنها المقتول في الساحة؟.. قرأتها عليّ فراولين هذا الصباح.. إنّ فراولين موهوبة بالتنبؤ، فهي تقرأ قصيدة ترتبط بحدث أرغب بإطلاعك عليه.. دخلت إلـى الغرفـة وقـرأت النـص رغـم أنّ اليـوم ليـس الأحد، إننـي متأكد. فتصـورت أن تكـون هـذه القصـة، التـي تبـدو لـك بلا مغـزى، كنوطة موسيقية تعزفها آلة ما من حين لآخر على مزاجها، فترويها بصوتها. وتوجد عصا المايسـترو التي تدير الموسـيقى كلها، إلاّ أن المايسـترو لا يُـرى. أتعـرف مـن يكـون المايسـترو الذي يحمـل العصا بيده؟ إنها فراولين، برأيي.

لا يمكنك أن تتخيل مآل شهر آب وهو ينتهي عند مطلع أيلول مستعجل، كسيارة تصطدم بشجرة، يبلغ ذروة التشنج ثم يرتخي كأنغام أكورديـون يلفـظ أنفاسـه الأخيـرة. شـهر آب العظيـم: تتهاوى النجوم في ليلته العاشـرة، فتتصاعد الألعاب النارية احتفاء بالقديس لورنس، وتتدفق المشـاعر وتبدو الحياة كمغارة لا حدّ لارتفاع قبّتها. ونحتفل بصعود مريم العذراء إلى الفردوس في يومه الخامس عشر. ولا تبخل علينا السماء بقطرات مطر منعشة فتنبعث رائحة الحشائش. ثم ينتهي

الشهر بيوم واحد يبتلع زهوّه وكبرياءه.. حتى الحياة تشبه شهر آب. تراها كيف تنتقل من القول إلى الفعل عندما لا تتوقع منها ذلك، وينخفض مستوى المرونة حتى يتلاشى فيظهر الغراب من إحدى الزوايا لينعق بجملته الشهيرة: (أبداً بعد اليوم)!... البيت المهجور كيقطينة يابسة يتآمر مع الفصول الميتة، ضمن السكون الكلي، ليوفّر راحة ضمير حتمية لجثة اليوم الحاضر[1]. لا شيء سوى كلمات مضطربة تتغلغل في ضباب اللاشيء.. كيف تشعر الآن؟.. سأله الطبيب زيغلر.. فأجاب تريستانو: أشعر أنني «شوشو». إنني على ما يرام بالمجمل لكني أشعر أنني «شوشو».. لم يفهم الطبيب، فسأله أن يشرح أفضل.. أشعر أنني مثل قرنبيط مبلل أيها الطبيب. هل رأيت تلك النباتات المتدلية التي تحتك بالسائل الطيني؟.. إنها تعطيك انطباع الشوشو أيضاً..شكّ الطبيب بحالة لا وعي لغوي، لكنه تريث قليلاً لأنه لم يكن من تلاميذ تلك المدرسة السيكولوجية.. وما هذه الكلمات الغريبة؟.. تردد تريستانو وأجاب بغموض: لا أعلم، أفكر فيها ليلاً، بل هي الكلمات من يفكّر بي في الحقيقة. تلسعني وتنهشني، كشظايا صغيرة من شيء ما انفجر بجنون. تصل كالأمواج عندما يتسع المد الليلي... وضع الطبيب يديه خلف ظهره، وذقنه يلامس صدره.. إنها أحلام مثلاً؟.. سأل فلم يجب تريستانو. أحلام يقظة إذن؟.. أجل، إلى حد ما أيها الطبيب. إنها نوع من الذكريات التي تطوف في مدارها الخاص عندما أقترب من منتصف الليل، يصل بعضها إليّ ويلسعني،

(1) في هذا التقديم التشاؤميّ لأزمة تريستانو المرضيّة، والأساسية في الرواية، ثمّة إشارات شعرية رفيعة عن الأدب السوداوي مثل قصيدة (الغراب) للأمريكي لإدغار آلان بو 1849-1809 و(الفصول الميتة) للشاعر الإيطالي "كبير جاكومو ليوباردي 1837-1798. (المترجم)

وأمـا الأخريـات فيكفـي أن أحـرّك ذراعي من جانب السـرير لأصطاد واحدة منها لا على التعيين.. كان الطبيب يروح ويجيء كأنه أراد أن يحفر خندقاً في الأرض. لم يكن يهتم إن كان تريستانو مستلقياً على الأريكة تحت سدة الباب، بل كان يرى الأمر كأنه ساهر على فراشه يفكر. قال: حاول أن تصطاد واحدة منها الآن. أطلق لنفسك العنان، اترك ذراعك تتأرجح واغمض عينيك. تصرف كما لو كنت بمفردك... عمّ الهدوء. تسمّر الطبيب زيغلر في مكانه وتوقف حتى عن الشهيق. لم يكن هنالك من صوت سوى أنفاس الريف وتثاؤب الأرض، رائحة القش في الوديان، أزيز نحلة وذبابة زرقاء، عواء كلب في البعيد البعيد، في العالم الآخر.. تمتم تريسـتانو منتشـياً: اصطدت علبة جامبوزنين وفيها مفتاح صدأ. لا شـيء، مجرد علبة جامبوزنين مكسـورة. حرّك الطبيب زيغلر يديه خلف ظهره: ماذا يعني جامبوزنين؟ سيد تريستانو ركّز أكثر واشرح لي... أوه.. أوه... أوه... أكان تريستانو يبحث عن شـيء ما أم كان حلقومه يصدر مقاطع صوتية مكثفة دون معنى كأنه بات في عالم الأحلام؟ انتظر الطبيب بفارغ الصبر.. لا بد أن أتحدث عن العادات الشـنبيلوبية القديمة أيها الطبيب.. كان تريسـتانو يتباطئ حتى انطلق بسـرعة إلى بلاد في منتهى الغرابة، ليس لها وجود على الخرائـط الجغرافيـة بالتأكيـد، تنتمي إلى خياله المفتوح على الأرجح، هنـاك حيـث توجـد الجزيـرة الطوباوية أيضاً... كانت شـنبيلوب إمارة على أرض ضيقة بين تيجان جبلية، وتطل على البحر الإغريقي التي ولـدت فيـه فينـوس العـذراء. وكانـت البلاد تحتـوي على قمم الجبال الوعرة والسفوح السهلة، إضافة إلى المروج ومزارع الزيتون والكستناء التي تشـقها آلاف الجداول السـاحرة بمياه نقية لن تعثر على شـبيهها

سوى بالماء التي عمّد بها أورلاندو سيفه المشهور، أو بتلك التي تحمم بها ديونجي دي جاولا بعد المشي أميالاً، كما يقول هيدالجو المجنون. واعتاد أهل الإمارة أن يغطسوا في هذه الجداول، وسط زغردة النساء، خلال أيام الحرّ الطويلة والاحتفالات بأعياد السنابل والحصاد. وكانت الجداول لا تحصى لدرجة أنّ الناس لم يكترثوا يوماً لمشكلة عدّها ووضعها في خرائطهم، فما المفيد إن كان لكل قرية جدول يجري بقربها؟! وعادة ما يقسم الجدول القرية إلى اثنتين، فيكرّس اختلافات ثقافية عميقة تعود لطقوس في غاية القدم بين المجتمع الذي يقع على الضفة اليمنى للجدول والآخر الذي يشرف على ضفته اليسرى. وهذا ما أكدته تسجيلات أحد الباحثين في الفلكلور والأنثربولوجيا القديمة، الذي دار البلاد أرضاً أرضاً ليجمع الأغاني الشعبية. فعثر على أغنية ضاربة في القدم تغنّيها الفتاة اشتياقاً لأرض آبائها بعد أن تبللت جواربها وتغرّبت بسبب عبور الجدول كي تتزوج وتقضي بقية حياتها في بيت يقابل بيت أهلها من الجانب الآخر... أنهك تريستانو فسكت وأغمض عينيه بينما تتأرجح ذراعه الصيادة عن الأريكة.. ليته لم يغفُ... خشي الطبيب أن يقاطع فضاء الحلم الذي يعدّ مقدساً لأي مريض وأساسياً لأي طبيب. وكان الريف يتنفس ببطء مع حلول الظهيرة، وعلى الطبيب أن يرجع إلى عيادته، بل كان سيلغي كل المواعيد بسرور بعد أن لفت هذا المريض انتباهه. استعاد تريستانو كلامه، لكنه ما زال يبحر في فضاء أحلامه متحدثاً عن الجامبوزنين كمخلوقات مائية تعود لأيام شبابه المفترض وتتبع لعالم الحيوانات الخيالي الذي يجول في خاطر المضطربين والشعراء الذين لم يكتبوا بيتاً واحداً في حياتهم. كان كلامه بالكاد يُفهم. تحدّث عن

فصيلة يتفاوت شكلها بين القشريات والسمك الذي نعرفه. فوردت حيوانات ما قبل الطوفان في ذهن الطبيب، تلك التي انقرضت منذ عصور سحيقة، عندما لم يكن ثمة تاريخ لأي شيء، ومن المستحيل تصنيف الكائنات، إذ كانت الزهرة تشبه الثمرة، والسمكة تشبه الطائر، والحشرة لا تختلف عن الثدييات بأية ميّزة... انظر أيها الطبيب، لا أدري إن كان شرحي مفيداً. لكنه حيوان صغير شبيه بجمبري المياه العذبة بلونه الزهري، إلّا أنّه يفتقد إلى العرف القرني، طريّ وناعم كالسنجاب، ورأسه صغير مستدير تظهر منه أربع مجسّات دقيقة لا تتعدى السنتمتر، ويتغذى بشراهة على عشبة شبيهة بالمسك تنبت في سرير الجداول الأكثر وعورة في الإمارة، وطعمها لذيذ لا يوصف ويبقى في لحم الجامبوزنين على نكهة الفطر البري المالح... كان الطبيب يصغي صامتاً، حين ارتفع عرير الجنادب. واحتدم القيظ فوق الدالية، فالشهر آب حينها، يشبه آب الذي نحن فيه الآن أيها الكاتب. ولم يكن تريستانو بحاجة للمورفين ليتجرد عن ذاته، بل كان هكذا من تلقاء نفسه.. كم وددت أن أروي عليك تلك الحادثة لاحقاً، لكنها خطرت في ذهني اليوم فرويتها، وأنا على ثقة بأنها ستكون بلا معنى في كتابك، فانسَ أمرها... اسمع، لقد حلّ المساء وستأتي فراولين لتعطيني الحقنة، لكني لا أرغب بها. أخبرها أنني جائع وأرغب بحساء الدجاج. لو كان الزمان كريماً لطلبت حساء الجامبوزنين، لكنها اندثرت ولم يتبقّ منها سوى العلبة الفارغة بمفتاحها الصدأ.. قل لفراولين إنني سأرتضي بحساء الدجاج إن لم تعثر على الجامبوزنين، ستفهم قصدي جيداً.

فيروتشو قال إنكم أنتم الكتّاب ترون أنفسكم دائماً في ضوء

المستقبل، ككتب تنشر بعد موت صاحبها.. فكّرت بالآلية التي اتخذتَها عندما تحدثت عني بضمير المتكلم، كما لو أنّ تريستانو كان أنت. لقد استودعتني للمستقبل، كشاهدة القبر. وكنت ترى نفسك فيها كمرآة، لأنّ تلك الشاهدة تعكس صورتك كما تمنيت أن تبدو للأجيال القادمة. لكني الآن أعبث بالوجه بل من الرأس حتى الأسفل، ومن القدمين حتى الأعلى، مثلما في مرايا الرواق في المعارض. يؤسفني ذلك، لكني لا أفهم ما الذي كنت تتأمله بمجيئك إليّ. لست أروي ما أرويه لأصادق عليه، بل على العكس... عليك أن لا تثق بالمرآة أبداً، فهي تبدو أنها تعكس صورتك للوهلة الأولى، لكنها تغيّرها وتقلبها رأساً على عقب، بل وأسوأ من هذا، إنها تمتصك.. ألم تكن تعرف أيها الكاتب أنّ المرايا كثيرة المنافذ؟

هام ماريوس بنظراته وهو يحرّك بإصبعه طحل القهوة التي بقيت في قعر الفنجان. بدا كأنه يتأمل أحجية فاشلة تبحث عن حل مستحيل. بقي صامتاً، وساحة بلاكا هي ذاتها في يوم بارد مشمس، والأكروبول الوعر فوقهما... ماريوس، هذا أنا، لقد عدت، انظر إليّ، أرجوك.. فتحدث ماريوس بنبرة فاترة، كطبيب يقرأ تشخيصاً أو قاض يقرأ حكماً.. الجبال نفسها، والصخور والأشجار أيضاً، لكن كل شيء قد انتهى. لم يعد يوجد أحد، لقد ماتوا كلهم، حتى أنا متّ أيضاً. الماريشال باباغوس استخرج من ظلام قلبه وعقله دكتاتوراً جديداً يشبه ذاك المخلوع وأهداه لليونان. ساعده الإنكليز والأمريكان أيضاً، وأوفدوا إليه سكولبي الاستراتيجي الكبير والمختص بالإبادات الجماعية.. لدى الإنكليز وأولاد عمومتهم ديمقراطيتان، الجيدة صالحة للاستخدام المحلي، والفاسدة مرمية في مستودع الزمان

وهـي المخصصـة للتصدير إلى الشـعوب الفقيـرة، فالفقراء يهضمون أي شـيء.. وأنـت عـدت الآن يـا تريسـتانو لتسـألني عـن دافني وبقية الرفـاق.. لقـد مـات الرفـاق ودافنـي بعيدة، لا أعـرف أين تكون. ربما تحيي الحفلات في مكان ما، فاليونان ليس بحاجة لألحانها طالما أنّ العسكر يجبر الناس على الأغاني الوطنية التعبوية.. أرى أنك عدت، أنـت هنـا كمـا وعدتنـي، لكنـك لم تعر انتباهاً للسـنين التي مرّت. لقد مضت عشـر سـنوات منذ أن رحلت في 1934 وقلت لنا إنك سـتعود إلى صفوفنا ما إن تطيح برأس الأفعى في بلادك. فها قد قُتلت الأفعى فـي إيطاليـا منـذ مـدة، لكنهـا ما زالت تعيـش عندنا أكثر من أي مكان آخـر. إن كنـت مشـتاقاً لجبـل البيلوبونيـس فاذهب وتنـزّه فيه، وتنفّس الأكسـجين لتنعش صدرك يا تريسـتانو.. بوسـعك أن تعود من حيث أتيت: إن كانت رؤيتنا ما دفعك للمجيء إلى هنا فأنت متأخر بشكل مريـع، وإن أتيـت لرؤيـة دافنـي فعد في السـنة القادمة... أيها الكاتب، لو كنت تعرف بهذا الحدث لرويته كأنه يخصك، فالبطل الذي يصل إلى الموعد متأخراً عشـر سـنوات يسـتحق بعض الصفحات لأنه يشـبه أوديس نوعاً ما. بل إنه نسخة هزلية عن أوديس، أراد أن يتجه إلى إيثاكة فاستقلّ القطار المتوجه إلى بانكيرفو.. ولا أعرف ما الذي كان سيردّ به بطلك لماريوس لو استطعت أن تكتب ما رويته عليك. كيف كان تريستانو الغالي إلى قلبك سيبرر غيابه؟.. اعذرني إن أطلقت أحكامي على النوايا، لكني أستمتع بالتخمين.. أتخيل تريستانو فخوراً بجروح العشق والغرام، فيقول بصوت رخيم: لقد سلّموني وسام الحرب، إنني بطـل يـا ماريـوس. أنتَ تتفهّـم كيف تمتلئ حياة الأبطال بالالتزامات، كالواجبات التمثيلية والمهمات الدبلوماسية وسفارات السلام والإخاء

والاحتفالات والمحاضرات.. وكان رجلاً كماريوس سيفهمه ويعانقه، لأنه ناضل لأجل الحرية حتى لو خرج من نضاله خاسراً. لكن تريستانو قال تبريراً من نوع آخر: لقد منعني تفصيل بسيط ملعون من المجيء باكراً.. كم كان التبرير مضحكاً يليق بذاك الساذج الذي أخطأ القطار... هذه هي الحقيقة بأكملها أيها الكاتب ولا شيء سواها، أقسم لك. وإن كنت تفضّل أن تكتب ما يمليه عليك رأسك بعد أن عرفت الحقيقة فأنت حرّ باختيارك. ومن بوسعه أن يكذّبك؟!

الله يكمن في التفاصيل.. هذا ما قاله فيلسوف يهودي وأظنه كان فقيهاً لغوياً. وأضيف أنّ الشيطان يكمن فيها أيضاً.. يتذكر تريستانو يوماً صيفياً لونه أزرق سماويّ. حتى المدينة يذكرها سماوية، مع أنها زهرية في الحقيقة، بألوان بيوتها الوردية على طول أسوار الحصن القديم التي تصل إلى البحر. وهنالك غسيل منشور على نوافذ تلك البيوت الشعبية، تبدو كأنها رايات بيضاء ترفرف مع رياح ذلك اليوم الهائجة. كان تريستانو يستقلّ دراجته النارية الحمراء عندما يذهب لزيارة تاديو، لأنه يحب أن يسلك طريق الساحل. هذا الطريق خارج المدينة بقليل، يتأرجح بين منعطفات ومنحدرات صخرية حيث تنمو الطرفاء والصبار. ويتمتع بإطلالة خلابة على بحر أزرق واسع وأشرعة في فضاء الأفق. كان الفندق الصغير يقع وسط تلك الأجواء، بنى تاديو سقفه المنخفض بيديه، عند الشاطئ الصخري الذي يتخلله الحصى. ويتكون من ثماني غرف، وفيه حمّام ومطبخ صغير. ولكل غرفة شرفتها المنفصلة عن الأخريات بأوان فخارية تحمل أزهار الحنّاء والياسمين لتعطي للسياح الألمان فكرة عن البحر المتوسط. لم يكن تاديو يقدّر الألمان بسبب ويلات الحرب، لكنهم أصبحوا أصدقاءه

كزبائن كرام ينزلون في فندقه المتواضع الذي لم يكن ليستقبل إلا عمّالاً من مقاطعة الرور الغنية بالمناجم. لقد اغتال كثيراً من الألمان في السابق، ووثّق أرقامهم بمذكرة بالية يحدد فيها المكان والزمان. وإن قتل أحدهم برتبة عسكرية عالية كان يضع ثلاث نجيمات بجانب رقمه. تعارف تاديو وتريستانو فوق تلك الجبال. كان تاديو شاباً بريّاً من عائلة حطابين ارتكبت بحقها قوات النخبة النازية مجزرة فظيعة في ذلك الحرش. لقد شاهد المذبحة عن كثب، وهو يختبئ بين أشجار البلوط مقابل بيته، بعينيه الوحشيتين. رأى جندياً نازياً تأخر عن الكتيبة ليأكل بيضة سلبها من قفص الدجاج. انتظره الشاب خلف سنديانة، وضربه على حلقه، حين مرّ بقربه، بعصا غليظة كان يحمي نفسه بها. ثم أخذ البندقية الألمانية وصعد إلى الجبال ليلتحق بالثوار. لم يعد بينهم أشياء تجمعهم بعد انتهاء الحرب، لكن تريستانو كان يحب المجيء إليه ليعبر الطريق الوعر على دراجته النارية وينتعش بريح البحر وروائحه. فلنأت إلى التفصيل: بدل أن يذهب بالدراجة يومها، استقلّ الحافلة. لماذا؟ لا أعرف. كان الصيادون ينصبون صناديقهم في ساحة تقع خلف الأسوار بين مكتب البريد والميناء. طاف تريستانو بين أدراج السمك الذي مازال يقفز محتضراً، فخطر في باله فجأة أن يزور صديقه تاديو. ولم يكن موقف الباص بعيداً. فاشترى السمك المناسب للحساء واجتاز الشارع. كانت حوالي الثانية عشر ظهراً، وعليه أن ينتظر عشر دقائق فقط. يذكر تريستانو صوتين دقيقين، كأنه كان يسمعهما حينذاك: أجراس الثانية عشر وزمور الباص الذي يصل في موعده الدقيق. لكنه سمع صوتاً آخر همس في أذنه: (معزوفات غلين ميللر أكثر بهجة من موسيقى شوبرت). استدار

وتفاجـأ لوجودهـا، فمـا اسـتطاع أن يقـول إلا: (مـا الذي تفعلينه هنا.. من أين جئت.. لِمَ لم تعودي إلى أمريكا؟). كنت بانتظارك، أجابت روزاموندا... لسـت أصطنع الأكاذيب أيها الكاتب، أجابت هكذا بلا معنى لتكمل ذلك المشـهد العبثي. ثم أضافت: سـآتي معك،عليّ أن أحدثـك. لكنهمـا لـم يتبـادلا أيـة كلمة أثناء الرحلة. نزلا عند الموقف الثاني، وأخذا الطريق التي تؤدي إلى الساحل، ووصلا إلى فندق تاديو. سلّم تريسـتانو السـمك للخادمة، لأنّ تاديو لم يكن قد وصل بعد. حجـزا غرفـة ونـزلا فيهـا. وكانـت الغرفة، مثل البقية، مليّسـة بالجصّ وتوحـي بطقـوس متوسـطية. والجـدران تملأهـا الحفـر وتزيّنها صور قديمة لصيادين يرتدون بناطيل متراخية ويفترشـون الأرض ليصلحوا شـباك الصيـد. وثمّـة بـاب صغيـر يوصـل إلـى الحمّام الـذي يحتوي على مرحاض ومغسـلة ودوش كعرنوس الذرة وراء سـتار بلاسـتيكي دائري. فتح تريسـتانو النافذة الكبيرة بحجم باب زجاجي وخرج إلى الشـرفة الصغيرة وأشـعل سـيجارة. لم يقل أحدهما كلمة واحدة حتى ذلـك الحيـن، اقتربـت مارليـن علـى رؤوس أصابعهـا وضمـت كتفيه بذراعيها. فسـألها: ماذا تريدين؟ أريدك أنت، أجابت. التفت وأمسـك معصميهـا كـي لا تعانقـه، وقـال: روزامونـدا، لا يعقل هذا، تتظاهرين كأن شـيئاً لم يحدث، قصتنا انتهت بشـكل سـيئ، فلا تجعليني أنهيها بشـكل أسـوأ.. جلسـت مارلين على مقعد مصبوغ بالأخضر ووضعت سـاقاً على سـاق. وقالت: لم يعد شـيء يهمني يا كلارك، أقسـم لك. فقال: لكني لم أعد أحبك، ولم يعد اسمي كلارك، بل إني لم أحبك يومـاً. فأجابـت: وأنـا أيضـاً لم أعد أحبك، لكنك تعرف كيف تشـتعل المشاعر. فقاطعها: انسي أمر المشاعر، قومي بهذا المجهود الصغير،

فأنت ماهرة بالنسيان.. تعشيا في المطعم الذي صمّمه تاديو في باحة الفندق. لم يكن ثمة أحد بالكاد، فالسياحة لم يحن فصلها بعد. قام تاديو بخدمتهما بصمت، كأنهما زبونين عاديين. حتى هما لم يتحدثا، وما برحا يصغيان إلى صوت الأمواج الهادئة على شاطئ الحصى. ومع بزوغ الفجر، قطع تريستانو ذلك الصمت المطبق: عليّ الذهاب إلى اليونان، ثمة امرأة تنتظرني هناك وأنا مغرم بها. داعبت مارلين صدره وهمست: انتظرتك هذه المرأة حتى هذا الوقت، بوسعها انتظارك أكثر. عانقته بقوة وارتجفت همساتها: تعال معي أولاً.. سأذهب إلى إسبانيا.. رافقني.. لقد كذبت عليك منذ قليل. إنني مغرمة بك.. رأى من النافذة ضوء قارب يصطاد في البعد.. وربما ما زلت أحبك، لكن باشتعال المشاعر فقط. الآن دعيني أنام، فأنا متعب.

اسدي لي معروفاً، قل لفراولين أن تأتي حالاً، فأنا بحاجة للحقنة. وإن رفضت بحجة التوفير فلتحقنني أنت.. عليك أن تقوم بشيء ما إضافة إلى التزامك بكتابة كلماتي. افعل شيئاً ملموساً تربحْ هذه القصة، ستكون أنت من يرويها، ستكون أنت صاحبها.. ولكن أرجوك أن تنادي فراولين الآن. إني بحاجة للحقنة، أخاف أن أئنّ من الألم، ولا يجدر بالأبطال أن يتألموا. وإن كان لا بد من ذلك فإنهم يتوجهون إلى الآلهة، أو يموتوا بصمت. يكفي أن تضرب كعوب أقدامهم، وأنا لا أؤمن بالآلهة، وكعبي صار عند خصيتي.. إن جئتني بفراولين سأروي لك شيئاً على طريقة إرنستو الوغد العجوز الذي رأى من الحياة كثيراً قبل أن يصوّب البندقية إلى قلبه. إني واثق أنه سيعجبك، فمن البديهي أن تكون شغوفاً بالأدب أيها الكاتب.. فراولين، تعالي!..

تبدين مثل بينوكيو عندما تؤلمه بطنه. سخر تريستانو من مارلين،

فشهقت. وقالت: كم أنت شرير. هذا صحيح. مررت بقصة حب عجيبة لأن قلبي ظلّ مشغولاً بحبك. لم يكن لديّ سوى فراغ محدود جداً لمصاحبة أحد الذكور، ووحدها تلك الحالة العجيبة سرت على ما يرام بشكل عجيب يا كلارك.. لا تناديني بهذا الاسم، أخبرتك مسبقاً بأني لم أعد كلارك، أنا تريستانو الآن. ولا أفهم وجه الشبه بيني وبين كيري سوى أنّه كان ينكحك أكثر مما أستطيع، وربما هكذا ترين الحب فقط. لم تغيّري سوى ناقوس الجرس في الواقع، والآن تريدين مني طفلاً؟ جئت متأخرة أيتها الحسناء تدفعك الشهوة. اعلمي أنّ إيقاع الحياة لا يتماشى مع زمن الشهوة، فقد تمضي مئة عام في يوم واحد. ابحثي عن رجل آخر، انتهى الزمن والحياة بالنسبة لتريستانو.

تذكرت أنني وعدتك بقصّ حكاية على طريقة إرنستو العجوز، ولا أعلم إن كانت ستعجبك. لكن، وقبل كل شيء، عليّ أن أروي على مسامعك شيئاً ما عن بانكيرفو. وقد تتساءل ماذا يكون. إنه مكان مجهول ومغمور في إسبانيا حيث يملأ نقيق الضفادع الريف، وشاءت الأقدار أن يمرّ تريستانو به...

قالت الفتاة: لا أحد يعلم متى يمرّ القطار. في إسبانيا يغلقون الطريق عند نقطة التقائه بالسكة الحديدية كأنّ القطار سيمرّ خلال خمس دقائق لكنه قد لا يمرّ إلا بعد يوم كامل. إنّ إسبانيا بلد العجائب!.. فقال الرجل: لا بد أن يكون القطار متجهاً إلى بانكيرفو، وربما لم يعد ثمّة رحلات تتجه إلى هناك. وقد لا يكون لهذه المدينة وجود، إنما من صنع أفكارك.. جلسا في مقهى صغير ليحتميا بجوّه المقبول هرباً من بطش الحرّ. كان سقف المقهى مصنوعاً من سدّادات البيرة التي تصدر ألحاناً شرقية إذا تموجت بفعل الهواء. وكان صاحب

المقهى مكتنزاً، وشاربه يشبه حاجبيه الحزينين.. كم غريب أن يعمل نادلاً من لديه شارب حلّاق، قال تريستانو. ثم أضاف: إنه شارب شاذ! فسألته: وهل ثمة قواعد للشارب؟.. مجّ قليلاً من البيرة وقال: طبعاً، حاولي أن تلاحظي ملامح هذه البشر. سأعطيك درساً أنثروبولوجياً. لقد رسمت على دفتري أنماط مختلفة من الشارب، لكن هذا البلد هو عالم الشوارب بامتياز. انظري إلى الشرطي مثلاً، له شارب بهذا الشكل.. رسم شارباً مصغّراً على المنديل.. أما المحامون فشواربهم تكون هكذا.. ورسم شارباً آخر. والقضاة هكذا، تشبه شوارب المحامين قليلاً لكنها من نوع آخر. وأساتذة الجامعة الموالون للنظام لهم شارب يختلف عن أولئك المعارضين له. حتى أصحاب الأراضي لهم شوارب مميزة. وهذا مثال عن شارب أكبر صاحب أرض في إسبانيا، ويدعى الجنرال. لا يختلف كثيراً عن شوارب الآخرين، لكنه مميّز لأنه للجنرال. ولو فكرنا جيداً بالأمر لوجدنا أنّ تاريخ هذا القرن هو تاريخ الشوارب: الشارب الألماني المقضوم، الشارب الروسي القروي.. أما القائد الإيطالي كان حليقاً، لأنه فارغ بكل شيء، مثل بقية الإيطاليين. نحن نعاني من الملط حتى في أرواحنا. لقد ظننتِ أنك ملطاء أكثر مني لكونك أنثى، وأنت غابة دون عشبة واحدة.. قالت الفتاة: أودّ أن تطلق شاربك أنت أيضاً. قد يناسبك في عمرك الآن.. فابتسم وقال لها: بالشارب أبدو مثل كلارك غيبيل. أنا آسف، لست ممثلاً سينمائياً، ولم أعد الرفيق المناضل، ولم يعد اسمي كلارك، هل تفهمين ما أقوله؟.. أشار لصاحب المقهى، الذي كاد يغفو خلف مكتبه، أن يجدد لهما البيرة.. همست: كنت أعرف أني سأجدك ثانية في ليلة صيفية كما توقعتها في رسالتي.. سألها: أية

رسالة؟ لم يصلني منك شيء.. فارتبكت نظراتها كأنها تتابع ذبابة تحوم.. رسالتي لم تتحدث عن ليلة من حزيران، عندما أخذتني إلى الفندق، لم يكن ذاك لقاء حقيقياً.. لكني طارحتكِ الغرام كل الليل. هل هنالك لقاء حقيقي أكثر من ذلك؟... إنكَ سوقي!.. أما أنت راقية جداً! وماذا بعد؟.. اللقاء الحقيقي كان في هذه الليلة، لكن الرجال لا يفهمون هذه الأمور أبداً.. فقال الرجل: نحن الرجال ينقصنا الإلمام بالماورائيات.. وأخذ يضحك محاولاً أن يضبط نفسه.. قالت حينها: أرجوك يا كلارك.. فقاطع كلامها: لا تناديني كلارك، لم أعد كلارك، قلت لك مراراً إنني تريستانو، أدعى تريستانو الآن.. فقالت: اسم تريستانو لا يليق بك، إنه مصطنع ولا يعجبني. ربما يكون اسم أخيك. قلت لي إنّ لديك أخ لكنك لم تقل ما اسمه... فابتسم، وأخذ يرسم بسبّابته خطوطاً على رطوبة الكأس، وقال: لقد فهمتِ كل شيء. إنني أخي.. حاولت أن تمسك يده، ولم تستطع لأنه تابع الرسم على الكأس، فقالت: تريستانو، قلت لي البارحة إنّ للحب أنواع ودرجات عديدة، وإنّ الخطيئة التي نرتكبها معاً قابلة للرحمة. لم يحاول كيري يوماً أن يحتفظ بي، كان رجلاً حزيناً يريد لي الخير أو ما يظن أنه الخير. لكنك ترى كل شيء كمؤامرة تحدق بك، وتنتقم وفقاً لأهوائك.. فتّش في جيبه وأخرج ورقة، وقرأ بصوت عال: .. لأنّ كيري لم يحاول يوماً أن يحتفظ بي, كان يريد لي الخير أو ما يظن أنه الخير، وكان في غاية الحزن بسببي.. رفع رأسه عن الورقة وقال: عذراً أيتها الحسناء، إنك تكررين الكلمات ذاتها التي كتبتها لي في هذه الرسالة. نحن في إسبانيا، وقد أُغلق الطريق ليمرّ القطار. لكنه لن يمرّ ثانية بعد اليوم، وألغيت كل الحجوزات. فلماذا تكررين

خبر إلغاء الرحلة على المسافرين؟.. لأنّ كيري كان حزيناً فوقعت في غرامه حينها. كنت كمن وجد جذوره التي لم يملكها أبداً. اتصل بي ذات مساء، وتوسل إليّ المجيء لأنه بحاجتي. إنني أمريكية مسكينة ضالة من الساحل الشرقي، تنحدر من عائلة من البرجوازية الصغيرة، أبي موثّق عقود وأمي مغفلة، هل بوسعك أن تفهمني يا كلارك؟.. لا تنادني كلارك، وكفّي عن قصّ الترهات. أبوك هاجر من صقلية إلى بروكلين، واستدعاه الأمريكان عندما أرسوا في صقلية ليوثّق العقود مع العرّابين المناسبين. وأنت أيضاً كلّفك الجيش الأمريكي بمهمة. وفيما يخصّ كيري فهذه حياتك وهي شأنك.. فقالت: لقد كانت حريتي الوحيدة، والحياة نعيشها لمرة واحدة.. جاء النادل ليمسح الطاولة، أبعد الذباب بالخرقة، وقال لهما: لقد مرَّ القطار المتوجه إلى بانكيرفو، ربما لم تنتبهان لتوقّفه وانطلاقه... الحرية كلمة مرنة أيتها الحسناء. أسأل نفسي إن كنت أتأثر بهذه الكلمة كالآخرين. وغالباً ما تحصل الكلمة نفسها على معان كثيرة بانتقالها من لسان لآخر.. نظرت الفتاة إلى ساعة يدها، وسألت: عن أيّ الحريات تدافع يا كلارك؟.. فنظر من النافذة إلى الخارج، كان المنظر جافاً، وبدت له التلال كفيلة بيضاء. وقال: فلنستخدم تقنية الفلاش باك. لست أنت من كان عليه أن يجهض، بل كنت أنا في واقع الأمر لأنّ نطفتي لم تشق طريقها في رحمك يوماً، وأصبحنا في سن متقدمة. خشيت أن أكون مخطئاً في الحرية التي دافعت عنها، فجئت معك لأفهمها بشكل أفضل. أنت تحاولين أن تقحميني بأعمال شريرة. إنّ لعبتكم خطيرة رغم أنها مكشوفة. وأنتم كالأطفال تعتقدون أنّ من يرفض الشيوعية قد يرضى بفرانثيسكو فرانكو مثلاً. ولي رغبة أن أفهم ما الذي يحتويه مخطط

مارشال، وأظن أنك عدت إليّ لهذا الأمر.. فأجابت: لقد ساعدني كيري شخصياً، ولم يكن أنانياً معي أبداً. وبالنسبة للنطفة فهي في رحمي وليس لدي أية نية بالإجهاض.. فقال تريستانو: يؤسفني أن أغيّر ختام حكايتك المستلهمة من همنغواي، لكني متأكد أنها إحدى ترّهاتك... وضع نقوداً على الطاولة وقال: سأعود إلى بلدي، فهذه المسرحية لا تعجبني.. أمسكت بيده وصرخت: إنك لا تفهم شيئاً، وتغمض عينيك في اللحظات الحاسمة. أوافقك أنني تفوهت بترّهات، لكني بحاجة إليك يا تريستانو، إني بحاجة إليك.

قل لي ماذا تفعل يا تريستانو. سألته الحسناء وهي تنظر إلى البحر الذي ينعكس في عينيها. كان يعانق المدى بذراعين مفتوحتين، وأجابها: عليّ أن أدافع عن الحرية الغالية التي بحثت عنها طويلاً، بينما أشعر أنني أجهل معنى هذه الحرية حقاً. لقد أقحمت نفسي في مغامرة لا تخصني دون أن أفهم السبب. عندما كنا في الجبل كانت الأمور في غاية الوضوح، لكنني اليوم لا أميّز أي شيء.. عذراً على المقاطعة أيها الكاتب، عليك أن تخبر فراولين أني لا أريد المورفين الآن، بل أحتاج للأرغوتامين. أخشى أن يتفاقم شأن هذا الصداع الذي يحتشد في رأسي. ابحث عن علبة الأرغوتامين في الدُّرج. ربما ستواجه سوء فهم إن أخبرتك أين ومتى جرى حديثهما. لكنك تتحمل جزءاً من المسؤولية لأنك لا تساعدني أبداً، فلا تنبس ببنت شفة ولا تطرح أي سؤال. إنك تطيع ما اتفقنا عليه بأن تبقى صامتاً وترعى شؤون الذبابة، لكنك تبالغ في رضوخك. دلّني إن رأيتني أشذّ عن درب البوصلة، فالأماكن والسنون تراكمت على ذاكرتي. يكفيني أن تعبّر عن ملاحظاتك كي لا أضيّع الخيط المنطقي.. أرى

أنـك تفعـل هـذا عمـداً، لأنك لئيم تتّبع أهواءك، ولأنك قلت لنفسـك إنّ هذا العجوز المتعجرف اختارني لأكتب قصة حياته لكنه يعاملني كنذل حقير، فلنر إن كان سيستسـلم طالباً مني المسـاعدة كي أخلّصه من ورطة ذكرياته.. ألم تفكر بذلك؟ ألا تنتظر أن أبكي عند قدميك؟ اسـمعني. أنـت تعـرف سـيرة حياتـي بخطوطهـا العريضـة، وأين كنت فـي عـام 1949 وعـام 1945 و1967 و1969 وعندمـا انفجـرت القنبلـة الأولى وحدثت المجزرة الأولى. ساعدني طالما أنك تحوز على هذه التوثيقات الجوهرية التي لم أعد أملكها لأنني مريض مضطرب. أهذا ما أردته مني؟ لكني لن أدعك تحلم بما تريد.. لا أريد منك شـيئاً، ولسـت بحاجة لمسـاعدتك، سـأتدبر الأمر بنفسـي... كان تريسـتانو يقـول إنـه عليـه الذهـاب إلـى اليونـان ولا يهمّـك متى قـال ذلك.. ما يهـمّ كلينـا هـو أنّ روزامونـدا اقترحـت عليـه أن يرافقهـا إلى إسـبانيا. فحسـب أنّ حبيبته الحسـناء تمازحه، فبادلها المزاح وأجابها: وكيف لا؟! سـنذهب بسـيارة بيضاء فارهة. نسـافر عبر جبال البرانس حيث يكون الطقس منعشاً وصافياً، والطريق مليئةً بالمنعطفات. وسأقف عند منظر جميل أتمعن بالجبال الساحرة منقطعة النظير، حيث اصطحبك عمك الأمريكي لنزهات رومنسية وهو يسندك إلى الزلاجة. وإذا جننت سأروي لك عن كاتب فرنسي قذر وعبقري.. فقالت روزاموندا: لكن عمي هو أنت. يا لك من غبي يا كلارك. أفكارك مشتتة وتسهب في استباق الأمور لأني أصغي إليك بشغف. حرارتك مرتفعة يا كلارك. الغرغرينا تلتهم ساقك، فتتجرع المورفين وتنسى أنك عمي.. سامحيني إن اعتبرت نفسي عماً لك في هذه الظروف... كم هي الساعة؟.. هل كنت أقول شيئاً؟... عليك بالصبر أيها الكاتب، لقد غفوت وهلوست

أثناء نومي. تحيك لي الحسناء المكائد، وتسألني عن الخيانة ولا تشكّ بأنها أضاعت معنى الهوية، كأني لم أكن أعرف أنني تريستانو الذي أصبح بطلاً وكانوا يلقّبونه بالقائد كلارك.. لقد فقدت رشدي للحظة واعتبرت نفسي عمّها، وكنت سأسألها عن أحوال عمّها الأمريكي، كيري الرائع. أعرف الجواب عن ظهر قلب: إنه بخير، عنده زوجة جديدة كتب لها أبيات شعر على بطاقة معايدة وأرسلها إلى والديه. وأظن أني رأيتهما في السيارة البيضاء يضحكان كمغفلين لأنّ تريستانو هزأ من عنوان المعايدة، فقهقهت الحسناء. ولم ينته النقاش بالضحك، بل أصرّت أن تعرف عن ذاك الكاتب القذر الذي سوف يحدّثها عنه بين الجبال. وقال بغموض يحمّس الفتاة إنّ الكاتب رجل يحبّ السفر ليلاً ولا يوالي الأنظمة الشمولية! وكانت الحسناء تهتم بهذه الأمور، فحينما أنزلوها بالمظلة في بلادنا قالت إنّ تمثال الحرية أول شيء يراه المرء حين يصل إلى نيويورك.. رفقاً بي يا روزاموندا. أوافقك أنّ ما بيننا يشبه التجاذب المغناطيسي، لكني أؤكد لك أنّ ما من شيء آخر. فأنت تقررين شيئاً وفي الخفاء تفعلين شيئاً آخر. أعرفك جيداً لأنني أذكر ماضيك على فراش الموت، وأعرف كيف سيكون مستقبلك إذ أقصّه الآن على هذا الكاتب العزيز. فلننس الموضوع. ولا تتسرعي بمعرفة من يكون الكاتب القذر. وأعيريني جلّ اهتمامك، فهي وجهات نظر وعلينا أن ننظر من كل الزوايا كما نشاهد هذا المنظر الواسع الذي نشرف عليه.. تحلَّ بالصبر يا صديقي، وسامحني إن لم أعد أذكر شيئاً الآن. وأفضّل أن أتحدث، ففي الكلام أتناسى الصداع الذي ينتابني منذ زمن بعيد جداً، منذ أن كتب الإغريق أسطورة تريستان شارد الذهن حتى انفجر رأسه.. لم يفهم أحد سرّ الصداع

أبـداً. أدرك الأطبـاء أعراضـه وحـاول العلمـاء ابتكار الأدوية لتسـكين آلام صاحبـه، لكنهـم وقفـوا عاجزيـن عـن تفسـير كينونته ومنشـأه. قد يكون منبته عصبيّاً أو سيكوسـوماتياً كما يسـمّى في الطبّ الحديث. أتحسـر على أيام شـبابي، كنت أنطح الحائط دون أن أتألـم.. اسـمع، سأصطنع بقية القصة، لمجرد الكلام ليس إلاّ. كما ترى، إني صادق وأعتـرف لـك بأنـي سـأصطنع تتمـة القصة. فلتكن أنّ تريسـتانو وضع الطعـام علـى طاولـة صخرية تشـرف على ذلـك المنظر الجميل تحت ظلال الحور.. فلتعلم أننا في جبال البرانس. والفرنسـيون عباقرة، لا يفوتهم منظر خلاب دون أن يشيدوا فيه ساحة بإمكانك التوقف فيها لتمتّـع ناظريـك. ويبنـون كوخـاً وحمّامات عامـة وطاولتين صخريتين لتبسـط عليها طعامك. فترى العائلات تتوقف للأكل والسـعادة بهذا المنظـر الفرنسـي الحـرّ والجمهـوري.. شـعر تريسـتانو بالبهجة أيضاً، دون أن يكون لديه أسرة. وضع منديلاً وصحوناً كرتونية اشتراها من سـوبرماركت في سـان جان دولوز. كانت الصحون تحمل في ثناياها جملاً لأدباء أو عناوين كتب مشهورة. (أفضل العوالم الممكنة) كانت العبارة المكتوبة على تلك الصحون التي اشتراها. وكان صاحب فكرة هذه الصحون الأدبية مرسوماً بقلم رصاص في وسط الصحن. وجهه بليد، ويحمل خدّه على يده وخصلة شعره تداعب جبهته كأنه حلاق. ونُقشت العلامة التجارية بحروف صغيرة على حافة الصحن: (وجبة أدبية شـهية!). قال تريسـتانو: أيتها الحسـناء، أظن أننا نسبق زماننا. فأجابتـه: أنـت وحـدك مـن يسـبق زمانه. لسـت محظوظـاً بعلاقة طيبة مع الزمن، تتراجع عنه تارة، وتسبقه بمراحل تارة أخرى. لست منسجماً مـع حياتـك.. فابتسـم لروعـة المنظـر الذي يبتسـم بوجـه كل من يمرّ

فيه باسماً ويلاحظ الابتسامة، مثل تريستانو... كان المساء يهبط على تلك الوديان الباسمة والضوء يغلب عليه اللون السماوي. انتهز الرجل هـدوء الطقـس فأفصـح عـن ولعه بذلك الكاتب الذي كاد يصبح قملة لشدة قذارته، وامتص من دماء البشر حتى استوعب نجاسته. وقال إنّه لا يستغني عن المســاء الذي يذكّره بنقطة ضعفه تجاه تلك القصيدة. ووافقته الحسناء لأنّ المساء غال على قلبها أيضاً. ثم سألته عن سرّ إعجابـه بـذاك الكاتـب القـذر، على حدّ تعبيره. ألأنّه فقد الأمل؟ فنظر فـي صحنـه الـذي تلطّـخ بكلمات فولتير وأجابها: لأنه غطس في براز هذا العصر الذي نعيش فيه. وكم تلزمنا من شجاعة لنغطس في البراز! عندما نصل إلى إسبانيا سأجعلك تعيشين لحظة من خيال الأدب الذي قرأتِ عنه كثيراً، لكنك ستعيشين فيه معي كأننا في إحدى صفحاته. سترين هناك شارع مغلق ليمرّ القطار الذي قد لا يمرّ أبداً.. وظهيرة جامدة وحياة أكثر جموداً.. رجل وامرأة يشـربان الجعة وينظران إلى الذباب.. وكل منهما قد أجهض على طريقته.. وخلف سياج الشارع تلال تبدو كمقبرة لفيلة بيضاء أصيبت بمرض جلدي..

أصاب الشاعر اليوناني حين قال: سأروي عليك إحدى ذكريات الزمن البعيد، بالكاد أذكر لون عينيه، أظن أنه أزرق..هذا الشاعر كتب قصائده العظيمة بالصوت ومات بسرطان الحلق فأضاعها كلها... كان يحب الرجال.. آه لو صادفه تريستانو وتعرّف عليه!.. آه لو تعدّى هواه النســاء لكان عشـقه رجل كهذا الشــاعر. لكن الحياة لا تعاد.. كنت أتكلم عن العيون. لحسن الحظ، كل شيء قابل أن يصاغ بأغنية عندما تتأمل وجهة نظر أحد لا يرى أبعد من السقف.. j›ai la mémoire qui flanche, je me souviens plus trés bien de quelle couleur étaient

...ses yeux, étaient-ils verts ou bleus?[1] ذات يوم وصلته إحدى الرسائل، سأروي لك تفاصيلها في الأيام المقبلة، كلماتها تشبه الأغنية. لكنها رسالة صوتية، كتلك التي أحسّ بها الشاعر: (..وقد تلمحين عينيّ في نظرات رجل آخر يوماً ما!)...

سمع عوائها وهو ما يزال في باحة المتحف.. أتسمعين يا روزاموندا؟.. كانا في يوم إسباني من شهر آب حيث يحظر الحرّ التجول في المدينة. لكنه كان يوم عطلة دفع الأهالي إلى ترك مدينتهم للأشباح تسرح حتى في متاحفها، وهرعوا بعيداً لينجوا من قيظ يلهب الصخر والإسفلت. فغرقت اللوحات الفنية في سكون الحرارة كأنها رؤىً تطوف على سطح المنام. نادى في الممرّ بصوت منخفض، فعاد الصدى مهيباً على أجنحة من فراغ. خطرت في باله بلدة بيضاء نُصبت منصة الزفاف على شاطئها، وأمه تمسكه من يده وتقوده إلى الخوري لتعتذر: (لا تؤاخذنا يا دون فيليو إن لم نتزوج في الكنيسة، لكن تريستانو أراد ذلك مع أنه لا يعارض الرهبان على شيء. إننا نزوّجه الآن لأنه كان مريضاً. كان سجيناً في النمسا حيث أصيب بالحمّى الإسبانية، ولم يأمل أن يعود. لكنه عاد بعد عدة أعوام من انتهاء الحرب، ووجد ابنه قد أصبح يافعاً. لقد شرّفتنا بالمجيء إلى وليمة الغداء يا سيدي الخوري، إنها بادرة لطيفة من حضرتكم)..وفي المتحف حينها، جعلها تقف عند لوحة خوري بشوش ذاب كرشه الهزلي منذ قرون.. دنا تريستانو بفمه إلى أذن الحسناء: روزاموندا، لم أقل لك إنّ والدي كان يدعى تريستانو أيضاً وإنني لم أعمّد. فهمست:

(1) الجملة واردة بالفرنسية وتعني: ذاكرتي حائرة، لم أعد أذكر ما لون عينيه، أكانتا زرقاء أم خضراء؟ (المترجم)

أما أنا فقد عمّدوني. في الجبال كنت أبدو جندية عنيدة، لكني لست كذلك لأنني مسيحية أصيلة وأعلم أنه لا ينبغي أن يشتهي الرجل نساء الآخرين. فقال: أفهم أنك لا ترغبين بالنساء، فأنت كاثوليكية أصيلة حتى لو كنت بروتستانتية. لكنك اشتهيت رجال الأخريات دائماً.. تمشّيا في المتحف وكان تريستانو يتقدم كأنه دليل مجموعة سياحية دون سيّاح. صعد الدرج وقال: دعي هذه اللوحات التي لا تحمل أهمية لهذا اليوم. ربما تأتين بمفردك يوماً ما لتستمتعي بجمال هذا المتحف، عندما يحين فصل ربيعك الذابل. فلنذهب اليوم إلى الكلب الأصفر، ألا تسمعين عواءه؟.. أظن أنه سيموت من العطش، فلنعطه ماءً. كم من الناس تمرّ بجانبه على طول السنة، وتنظر إليه بحيادية كمن ينظر إلى أيّ كلب ولا يفكر أحد بمنحه قطرة الماء التي يحتاجها. لكن هذا اليوم مناسب، فلا وجود لأحد، وقد يكون حارس الصالة نائماً على مقعده. لو كنت مدير هذا المتحف لأمرت أن يوصلوا صنبور ماء بارد بالقرب من الكلب. مدراء المتاحف يتجاهلون تطلّع اللوحات! إذ يقومون بوظيفتهم فحسب، ولا يهمهم إذا عانى الكلب إلى الأبد، كما أراد له الرسام... كان الحارس نائماً كما توقع تريستانو فدخلا. نظر الكلب إليهما بنظرة متضرعة كجرو أصفر اللون مدفون بالرمل حتى عنقه، يتألم طويلاً ويقدّر حجم المعاناة عند الكينونات التي لا صوت لها، وقد نكون كلنا كذلك. نظرت الحسناء إليه، فاستدارت بسرعة ثم أسندت ذراعها إلى الجدار، وحنت رأسها على ذراعها وقالت: هذا لا يطاق، لا أحتمل النظر إليه. فقال: ليس إلا حمّام رملي. أمره الرسام بحمّام رملي فقط.. قالت: اصمت أرجوك. فاسترسل: أتظنين أنّ صعقات الكهرباء في المصحات النفسية أفضل؟.. كان بلا

شكّ جرواً تائهاً لقيطاً مشرّداً، يجول في الضواحي، حاملاً حقيبة على ظهره ورغيف خبز في فمه، ينام داخل الصناديق ولم يذهب يوماً إلى الحلاق. كان بالنتيجة خارج الزمن، ففكر الرسام أن يفعل شيئاً مفيداً للسلطان والرعيّة. مرّر الريشة على الألوان، قبض عليه فوضعه تحت الرمل حتى عنقه. وقال: تبّاً لك أيها الكلب المتسكع، لن تستطيع الآن أن تعض أحداً. وهكذا يطمئنّ الحي وينام المواطنون بسلام مما يزيد فرحة السلطان. قالت: لقد كان الرسام شريراً. فاعترض مصححاً: لا بل كان طيباً، وكان شريراً مع نفسه فقط، أما الكلب فكان متوحشاً.. أثقلت الحرارة جو الصالة بنكهة العفن وازدحام اليوم السابق، وتمنّت الحسناء أن يكون الهواء مكيفاً، فقال لها: على رسلك، نحن في إسبانيا بلاد الجنرال الذي يتقزز من الحداثة ومنكم أيها الأمريكيين. قد يصفه أحد عاجلاً أم آجلاً بأنه يحارب الشيوعية دفاعاً عن الغرب، فلمَ يترفّه الشعب بالهواء المكيف إذا كان ينعم شخصه الجليل بالانتعاش في مخزن الملابس؟.. جلسا على الأرض وحدّق تريستانو بالكلب، ورمقته الحسناء بنظرات خاطفة من حين لآخر. لم يجد الرجل ما يقوله وتساءل عن السبب الذي دفعه ليريها تلك اللوحة.. أتعلم أيها الكاتب؟ لو كان تريستانو منجّماً لأخبرها بلقاء هذا الكلب يوماً ما، ولقال لها: ستتعرفين على هذا الكلب يوماً يا روزاموندا.. ثم إنه ليس كلباً، بل كلبة، ومن الصعب التعرف على جنس كلب مدفون في الرمل، لكني أعرف أنها أنثى... لم يكن لديه حس التنبؤ، ولهذا السبب أروي ما كان عليّ أن أفطن إليه. على المرء أن يدرك بعض الإشارات في أوانها، وليس عندما يموت.. سألْته: أأنت بخير؟.. فأجابها: إني بخير حتى الموت.. فهمست: لا أراك على ما يرام.

لقد التهمت إناء كاملاً من أمعاء الخروف على الغداء، وامتلكت شجاعة أن تطارحني الغرام ثلاثاً تباعاً بعدئذ... أمرها تريستانو أن تبقى حيث هي، وذهب ليجلس تحت الكلب الأصفر. وثنى ذراعيه وركبتيه مثل دمية في مسرح العرائس دون حبال، وراح يهذي: ذات يوم قدّموا لي الحب كوجبة أمعاء باردة على مائدة مطعم خارج الزمان والمكان. فقلت للطبّاخ، بعد أن شكرته، إنني أفضّلها ساخنة لأنها لا تؤكل باردة. ولم آكل منها شيئاً، بل دفعت الحساب وخرجت إلى الشارع.. فقاطعته روزاموندا: ما الذي تقوله بحق السماء؟.. أجاب: إنها من تلك الأشياء التي تقرأها عليّ فراولين، ولن يفيدنا الغوص بتفاصيلها. لقد قفزت من فكرى لأخرى بوثبة واحدة، ولا علاقة لما قلته بما جرى البارحة، بل بما قد يجري في المستقبل.. ثم نهض ووقف على مقربة من الكلب، وقال: أيها القائد كلارك، أتيت لك بالماء!.. كان يحمل على خصره حبّات من اليقطين اليابس الفارغ الذي يحفظ به الرعاة الماء البارد في كاستيليا. وضعها عند اللوحة، وتراجع وأدّى التحية العسكرية.. قال للحسناء: فلنذهب من هنا. لقد تأخر الوقت وسوف يغلق الحارس أبواب هذه المقبرة.

فلنتجاهل وجود الزمن ولندع الأيام تمرّ دون أن نحصيها..كان ينبغي أن نفعل ذلك عندما كنا مغفلين حين فاتتنا الأيام دون أن نعدّها يا مافري. ما تقترحين يشبه أن أحلم فأستيقظ وأسأل نفسي أين كنت وهل كنت أنا نفسي ولماذا؟.. ولكن ما من جواب. أمورنا تمضي من تلقاء نفسها، دون تبرير، حتى لو كنا مسئولين عن أحلامنا، كما أصاب الأوّلون بقولهم. حدثيني عن طفولتك يا مافري، وعن رفاقك الذين لم يستيقظوا مثلي والآن لديهم أضرحة مجهولة فوق الجبال،

وينتمون لعالم الأحلام، ولا أستطيع التحدث إليهم... أريد أن تعزفي لي ألحان تلك الليلة، لا يوجد بيانو هنا، لذا أخجل أن أطلب منك العزف. لكني أسمع الألحان في غابات السرو، فلنذهب لرؤية بحر إيجه من معبد بوسيدون. لم يعد لرفاقك حدود، فمدارهم مفتوح، يمتدون بين الأغصان ويتغذون من جذور الكستناء. وكم نادوا باسمي ولم أسمعهم يا مافري. كنا ننتمي إلى هذه الأرض دون أن نعرف ذلك. هذه الصخور لي، علّمتني أشياء كثيرة. ستأتين معي يوماً ما، ولكن خذيني معك هذه المرة إلى كريت، أريد رؤية البيت الذي ولدتِ فيه، ولا ينبغي أن تتركيه منسياً كأن والديك ماتا مرتين. أعرف البيت جيداً، سأكون أنا من يفتح الباب، وستدخلين معي. كم تخيّلتُني أعيش فيه! أعرف أنّ مفتاح البوابة الثخين معلّق خلف غصن غار يابس، والقفل عبارة عن عصا خشبية تُرفع من الطرف الآخر، والكراسي من قش، وهنالك كرسي من صخر مغطّى بوسائد مبطّنة بالنسيج الكريتي قرب النافذة، والمائدة العامرة في وسط الغرفة، وهي صخرة كبيرة مستديرة كانت مطحنة زيتون، تسندها صخرة أخرى.. ستكون ورشتنا، سنرسم عليها العالم الذي نرغب فيه، سنؤلّف الكتب على تلك الصخرة.. مافري، لا أريد أن أقضي أيامي في قاعات الجامعة وليلاتي في المخبر أنقّب في السماء لاكتشاف عوالم أخرى، ألا يكفينا هذا العالم وما آل إليه بسببنا؟... أعرف أنك ستتركينني وحيداً معظم الوقت، لكن عندما تعودين من حفلاتك ستجدينني جالساً هناك، على تلك الصخرة... أتسمع صوت البيانو الذي أسمعه أيها الكاتب؟.. عفواً، كنت أحلم وأيقظني صوت البيانو. ربما كنت أحلم بالبيانو أيضاً لكني مازلت أسمعه الآن خارج الحلم. إنه يعزف الفالس، أتسمعه؟.. لا تقل لي

إنها هلوسات صوتية، افهمني. إنه فالس لا ماجور، يعزف في البعيد لكنه واضح جداً إذا أردت الإصغاء إليه.. ليس بيانو، بل أرغن الغجر. رأيتهم في طفولتي يعزفون عليه خلال المهرجانات واحتفالات سان جوفاني وسط بهجة الناس واشتعال الساحة بالرقص.. أصبحت هذه التقاليد بالية ولا تهمّ أحداً، لكن الأغنيات الجميلة تأتي من الماضي لتذكّرنا بأيامنا الميتة... هذه الساعة الساهرة فوق الخزانة لا يغمض لها جفن حتى في الليل. تتجسس على كل لحظة، كضفدع يتربص بالذباب. فأيّة مجرات وسنين ضوئية وهذا الكون ثابت! ما هي إلا ثانية تلو أخرى، تيك تاك، حتى تمرّ الساعة... ينطلق الغجري صوب مهرجان آخر، لكنه يعزف اللحن نفسه دائماً. أهناك عاشقان يريدان الرقص؟ يعرفهما جيداً. هي التي ترتدي حذاء أبيض وتنورة زرقاء مثنيّة، وهو الذي ترك معطفه على مسند الكرسي وقلبَ كميّ قميصه. راقِصها أيها الشاب، ضاحِكها، ألا ترى وميض عينيها، وكيف تتجلجل أضواء الساحة فيهما كالقناديل. جاء عازف البزق، إنه عجوز ضليع بالعاشقين، رأى كثيراً منهم يرقصون على أنغام حياته. لقد فهم هذا العجوز كل شيء، إذ بدأ يعزف ثاكسانارثيس.. تقول المرأة: كنت واثقة من عودتك، وها أنت هنا. فيضحكان ويتعانقان ويجذبها إليه. الناس يصفّقون ويطوّقون الراقصيَن. تمرر يدها في شعره ثم تقبّله. ينضمّ مزيد من العازفين، فتمتلئ الأجواء بالحيوية، ويرقص الجميع. ثمة رجل متقدم في السنّ يرقص وحده، ذراعاه في السماء كأنه يعانق السحاب. فتوقفا عن الرقص، وسط ذاك الحشد المبتهج، كتمثال بجسدين أخرجهما النحّات من صخرة واحدة. أغمضا عينيهما، وتلاصقت جبهتاهما كأنهما يتبادلان الخواطر ويفكران بالشيء نفسه:

إنّ السفينة إلى كريت تنطلق غداً في السابعة صباحاً، فلمَ نترك هذه الحفلة لنعود إلى المدينة كي ننام ساعات قليلة؟! قالت دافني: أعرف فندقاً على الميناء، كان جدي ينزل فيه أثناء دراسته في أثينا. صاحب الفندق يدعى استراتيس، ابن بلدتي، وأود أن أزوره. كان يعرفني مذ كنت طفلة، وأظنّه سيسرّ إذا أتيناه معاً يا تريستانو.

ليس صحيحاً أنك أخرجت الذبابة، صرت تكذب مثل فراولين. هل تسمع أزيزها أم ظننت أنه طنين داخلي يعربد في أذنيّ؟ هيّا أخرجها، افتح النافذة قليلاً كي تجد طريقها. سأغمض عينيّ حتى لا يضايقني الضوء. كم الساعة، هل مضى منتصف النهار؟.. أشعر أننا في الظهيرة، وربما تكون الساعة الثالثة.. غريب أن تشعر بالظهيرة حتى لو كنت في هذا السرير. للظهيرة أنفاس مميزة تُسمع بالأذنين. أنفاسها تحمل روائح خاصة تدخل الأنف والأذنين في آن واحد. ثمة ديك يصدح في الظهيرة. يا له من ديك غبي، ماذا يقصد بهذا الصداح؟ يظن أنه فحل وهو ليس كذلك البتة. إنه غبي ومتغطرس فقط.. ذات مرة كان هناك رجلان قويان في تلك الجبال، يصارعان عدواً واحداً، لكنهما يختلفان بالرأي حول مستقبل البلد. كان واحد منهما مختبئاً خلف صخرة ويرمق زهرة. وكانت الكتائب الغربية الثلاث ستغدو تحت إمرته، وعليه أن يصبح بطلاً ليستحقّ القيادة. وليس من السهل أن يصبح المرء بطلاً، فإذا أخطأت في الدقّة ملمتراً واحداً تكون نذلا خسيساً. إنها مسألة ملمترات.. كان هناك، يركّز نظره بزهرة والغابة البكر من حوله كمسرح يشهد على انتصاره في الحرب أو خسارته.. يحدث بعض الأحيان أنك على وشك أن تصبح بطلاً ثم ينتهي كل شيء في مجاري الصرف.. أرجوك، افتح النافذة،

لقد حلّ المساء كما أعتقد... هل أنت تكتب؟.. اكتب كلماتي كلها بالتفصيل الممل. أنت حر في كتابة روايات أخرى حسب مزاجك، فإياك أن تتلاعب بروايتي وتحرّفها!.. افتح النافذة، دع النسمة العليلة تدخل.. غالباً ما ينتهي الأبطال في مجاري الصرف، ولا يجدر بأحد أن يقول هذا لأنه ليس مناسباً لتربية اليافعين، وإلا كيف تضع يدك على قلبك بسرور لتحية العلم دون أن تغمرك مشاعر البطولة؟ أنت هناك، بانتظار وسام الشرف، وسط حشد رفيع لرجال الدولة.. ليس احتفالاً اعتيادياً، سيكرّمونك بقلادة الحرب.. جاء رئيس الجمهورية والسيدة الأولى، يا لهما من ثنائي! تريستانو ينظر إليهما ويقول: حمداً لله أنه برنامج وثائقي بالأبيض والأسود، فغياب الألوان يجعل المشهد أخفّ وطأة وفظاعة. احتشد المسؤولون على المنصة: وزير الداخلية ووزير الدفاع وجنرال يغرق بالأوسمة المعلّقة على صدره والكاردينال وفرقة المراسم العليا.. الأحد المقبل سنبثّ هذه الاحتفالية السامية عن البطولة الوطنية في جميع دور السينما الإيطالية، أو في المدن الكبرى على الأقل، قبل الفيلم الأمريكي الشيّق حيث تقول البطلة إنّ غداً يوم جديد ووراءها ينزف الغروب. هدف البرنامج أن يُعرّف الأجيال الشابة على هذا البطل القومي الذي ارتكب جناية البطولة حقاً. إنه كالجندي المجهول، يمثّل الإيطاليين بأسرهم، حتى نحن الرؤساء والجنرالات الذين لم ننضم إلى المقاومة. فالشعب الإيطالي لم يكن فاشياً أبداً، بل ناضل دوماً ضد الفاشية، ولم يكن يحلم يوماً أن يكون فاشياً.. أجل، كنت أنا من توهّم ذلك، وناضلت ضد لا أحد، فالفاشيون ليس لهم وجود، بل كانوا من صنع خيالي!.. الرئيس الأحدب يتقدم منتصباً نحو البطل برفقة ضابط كبير يحمل قلادة الحرب على طبق من فضة،

كلهم متعاونون يا تريستانو وليس أمامك مهرب.. في ذلك الفجر الشاحب لم أفكر بالفرار كما الآن! بقيت خلف الصخرة والرشاش بيدي.. اهرب يا تريستانو، اهرب قبل أن تصبح بطل هؤلاء المنافقين، فتمسي واحداً منهم دون أمل بالشفاء... أيها الكاتب، افتح النافذة على مصراعيها، أريد أن أشعر بانتعاش المساء، لأنّ المساء غال على قلبي. هل علّموك هذه الأنشودة في المدرسة؟.. ربما علّمك إياها أستاذ ما. كان تريستانو بحاجة لنسمة عذبة لكنه يتصبب عرقاً ويشعر بحرارة لا تطاق. افتح النافذة أيها الكاتب، دع نسيم الليل يدخل، فالليل ألذّ من المساء، ويستحق أن نكون شجعاناً لنحتفل به، فالليل صاحب الأحلام والكوابيس أيضاً، ومواجهة الكابوس أصعب من مقارعة النازيين، ففي الكابوس وحده تختبر بطولتك. أرجوك دعني بمفردي علّني أستطيع أن أنام.

رأيت تلك الحشرة قبل أن تذوب في الأفق، أوراكها العريضة مثل الجرار التي وضعتُ عليها يدي. وعلى يسار التلة، كان هناك أعمدة إيونية ليست سوى تلك الأبراج التي تظهر من النافذة، لكن الفنان الذي يرسم الأحلام حوّلها إلى أعمدة إيونية. وكلما اقتربت حبيبته أصبحت قدماها شيئاً فشيئاً تشبه الأعمدة، ونبتة اللبلاب تتعمشق حتى تغطي عانتها، وتساءل إن لم تكن قد أصبحت حبيبته شجرة متحركة. كان في كفنه، وسط تلك الغرفة التي تنفتح على المنظر. كانت فكرة لغرفة، وداخل هذه الفكرة مزرعة زيتون لا مثيل لها إلا عند آثار دلفوي اليونانية التي تمتاز بأشجارها المتشابكة والضاربة في القدم. لقد زار هذه الأماكن معها وهما يقومان بأصعب الرقصات التي لم يبق منها أثر.. يقودنا صوت ناي إلى الرقص، ونشعر به ولا

نسمعه.. كان يغمغم أغنية ثاكسانارثيس عندما أطلّت برأسها من شجرة زيتون وقالت: لقد عدت، لم أحتمل الغياب يا حبيبي، وظننتك ميتاً، وبحثت عنك في كل الجزر. كتبت رسالة ونذرتها للريح تحملها إليك. ثم أخبرتني يراعة تجوب الحقول أنك موجود هنا، فأتيت إليك يا تريستانو.. قال: حبيبتي مافري، اصفرّت السنابل وصار القمح دقيقاً، لكن الوقت ما يزال لصالحنا، سيخضرّ ساق النباتات عمّا قريب.. كانت على بعد خطوتين، قام من كفنه وهمس برأس مطأطئ: انظري كيف أتلفت الغرغرينا ساقي. فسد لحمي برمّته واستوطن الدود في الثمار.. كان عارياً، لا يرتدي إلا شالاً على عنقه كالحصادين في السهول..فقالت: قضيبك ما يزال كما هو، لم يتلف كل جسدك بعد، وربما هناك متسع من الوقت.. فقال: إني على وشك الرحيل، كما تشاء الحياة.. فردّت: لكنك تعجبني حتى الآن، ما زال قلبك ينبض مع أنّ الدود ينهش ساقك.. استلقيا على التلة التي أصبحت سهلاً واسعاً ودافئاً على الفور، وانحنت الشمس للغروب، فظهر ظل المعبد الإيوني على خصرها.. أتعلمين يا دافني أنني نسيت إحضار مظلة وشمعة موقدة على الدوام في منزل على ساحل البحر؟ لقد مررتِ بجانبها في ليلة ما وأنت تمشين ضمن إطار النافذة. إنها الذكرى الأهم في حياتي وكدت أنساها. أتذكرين ذلك البيت الذي عشنا ردحاً في غرفه الفارغة ورائحة الطحالب تعبق منها؟.. لم تجب، بل تتابعت أنفاسها مستعجلة في أذنيه كأنه الغثيان.. هاأنذا، قالت له كما كانت تقول عادة، ها أنذا تريستانو، ضمني إليك بقوة... وفجأة أُشعِل ضوء المنارة من الطرف الآخر للساحل حينذاك، وكان الظلام قد حلَّ على السهل. من حسن الحظ أنهم أشعلوا ضوء المنارة، فتبدد الخوف بكلّ دواعيه.

هل تعرف القصيدة التي تتحدث عن أم تتشح بلون الحداد وتبكي على جثة ابنها المقتول في الساحة؟.. قرأتها عليّ فراولين أول البارحة، تقول: رحلت في شهر أيار، فاضمحلّ الماء في النبع، سأدعو أن تنهل من المياه الخالدة... ثم تقول إنها سترسل شعرها الأبيض ليغطّي ورود وجهه الذابلة... إنها الثانية عشرة والنصف ليلاً، مرّت الساعات بسرعة. إنني أتكهن الوقت. أشعلت فراولين الضوء في التاسعة، وأنا بقيت هنا متسمراً بلا كلمة. ومع من أتحدث وأنا أعيش وحيداً في هذا البيت.. أرأيت كيف تناسبني هذه القصيدة؟ كأنها كُتبت خصّيصاً لأجلي، وكأنّ الشاعر يعرف حالتي.. ليس صحيحاً أنني وحيد، بوسعي التحدث إليك رغم أنك لا تجيب، وليس الإصغاء بالشيء القليل.. شكراً لك.

أترى أيها الكاتب كيف أقفز من زمن لآخر بضبابية يلفّها الغموض؟ لم أعد أعرف كم الساعة ولا أميّز الوقت. وفي لحظة كهذه يراودني بابيوه، ومن يكون هذا؟ هل أعرفه؟.. ربما كان شخصية في رواية قرأتها منذ زمن. إنه شاب شجاع ناضل في سبيل حرية بلاده بوروندي أو مكان مشابه. الذاكرة تحمل كل شيء بعيداً بضربة واحدة. لكنك تمتاز عن غيرك لأني أعلّمك أنّ وقت الساعة لا يتماشى مع زمن الحياة. وإذا ناقشتَ الموضوع مع أحد ما، قل له إنّ هذه الحقيقة علّمك إياها عجوز يحتضر ويتنزّه في أروقة الزمن على مزاجه. وقد يبدو الأمر للبعض خدعة، لأنهم لا يهتمون بفهم الأشياء. يعتقدون أنّ كل شيء في هذه الدنيا مجرّد خدعة، فلم يتبقّ لبني البشر مذكّرات كثيرة أيها الكاتب.: مذكرات يوليوس قيصر، واعترافات أغسطين وبكائيات موللي. إنها بكائيات الرحم، لكنّ رجلاً كان من ألّفها.

وما أقصّه عليك يعتبر بكائية، وأرغب أن يكون عندي رحم. أرغب أن أكون امرأة شابة وحسناء الآن.. امرأة يسري النسغ في عروقها، ويرفعها القمر إليه كما يفعل بالبحر مدّاً وجزرا.. امرأة تكون «بدء الحياة» بحدّ ذاتها.. ولكني أجلس على هذا السرير وأروي لك هباء، ولديّ خصيتين متيبّستين ستقضمهما الغرغرينا قريباً.

روزاموندا روزاموندا ما أروع هذا المساء، كأنه ّمن صنع ساحرة مرهفة.. فيه ألف ضوء وألف صوت وألف قلب سعيد، يملأها الفرح.. قلبي تحت تصرفك أيها الكاتب، لا أفكر إلاّ فيك أيها الكاتب... شيء غريب حقاً، لقد اتصلت بك وكنت أفكر في نفسي فقط، ولم أكن أفكر فيك أبداً. ومنذ أن وصلت إلى هنا بدأت أفكر فيك، حتى لو لم تقل كلمة واحدة. أفكر فيك لسبب واحد، وهو أنك تكتبني. ويبدو لي أحياناً أنك جزء مني، فأسأل نفسي إن كان ما أرويه عليك يخصّني لأنني من يرويه، أم يخصّك لأنك من يكتبه... من صاحب القصة يا تُرى؟ الراوي أم الكاتب؟.. ما رأيك أنت؟.. فكّرْ بالأمر، فأنا في أرذل العمر ولم يعد أي شيء يهمّني.

فكرت أثناء الليل أن نبرم اتفاقاً، أنا وأنت.. أريد أن أطرح عليك بعض الأسئلة. قل إنها مقايضة بالأحرى. قبل ذلك علينا أن نضع النقاط على الحروف، فلا تتوهم أنني طلبت منك المجيء بل كنت أنت من أراد ذلك. أنا أومأت لك بإشارة واحدة فأتيت إليّ راكضاً مسرعاً كأنها أمنيتك الوحيدة في الحياة وتحققت.. ينبغي أن نعقد الاتفاقية فوراً بكلمة شرف بين رجلين شريفين، أشدّ يديك بيديّ لنضع حلاً لهذه المسألة.. أردت أن أفرض عليك هذه الاتفاقية منذ البداية، لكني بدأت القصّ وأسهبت حتى نسيت الموضوع.. أقترح أن تخبرني

شيئاً بالمقابل.. إني سعيد أن نصل إلى تفاهم لأني أعرفكم جيداً يا معشر الكتّاب: تستسلمون للسرد في لحظة مناسبة، يبدو لكم أن اتفاقية كهذه ليس لها علاقة ببقية القصة لأنها تكسر الإيقاع، فتحذفونها فيتهاوى بنيان القصة بأكمله.. هذه الحكاية أرويها أنا وتكتبها أنت، فما الضامن أنك ستضع فيها ما يبدو عبثياً وليس له علاقة بالباقي؟.. لكنه مهم وأساسي، ولهذا علينا أن نبرم الاتفاقية، أنا أروي عليك ما تعهدت لك بقصّه مقابل أن يدخل اتفاقنا في كتابك، فالمواثيق المكتوبة لها قيمة كبيرة كما يقال.. وخاصة إذا طلبها بطل وطني وليس شخصاً عادياً.. رجل بوسام شرف رسمي على صدره، وهذا ما يولّد انطباعاً إيجابياً سيّما عند البريطانيين. فهم يقدّرون البطولة لأنهم جرّبوها مراراً، وكانوا في الجبل عندما كان تريستانو هناك أيضاً.. بوسعك أن تكتب أنّ تريستانو كان يحترمهم بصدق في تلك المناسبة فقط، لأنهم ارتكبوا الفظائع في مناسبات وأمكنة أخرى. وليس بحاجة للذهاب بعيداً، يكفيه أن يفكر في بلاد حبيبته دافني حيث دعموا الماريشال باباغوس الفاشي. فقدّموا لشعب اليونان دكتاتوراً جديداً، وملكاً جديداً بعد ميتاكسوس. هكذا يفهم الإنكليز الديمقراطية في بلاد الآخرين.. نأتي إلى اللبّ.. لا أستطيع أن أجد الصيغة المناسبة، فإيجاد الكلمات اللائقة وظيفتك. وإن لم تكن لطيفاً ودبلوماسياً فلست بكاتب.. لعلّ المشكلة تكمن في مرمر الباراثينيون. تريستانو يرغب أن تسأله عن هذا الأمر.. يحكى أنّ هناك لورداً بريطانياً، كان سفيراً في تركيا، سرق من اليونان الخاضع للعثمانيين حينها أعمدةً من المرمر في معبد الباراثينيون الخالد ليحمله إلى بريطانيا. إنها سرقة محضة، كأنّ أحدهم وجد سيدة فاقدة الوعي في شارع موحش فاقتلع طوقها

ليحمله إلى زوجته.. نشل عمّال هذا اللص المرمر بالفأس والهراوة.. منذ سنين بعيدة قرأت الوصف المفصّل لشاهد على هذا الاغتصاب.. لم يسرقوا لوحة تشرّف أي جدار بجمالها، بل سرقوا مشهداً تاريخياً بأسره.. واصطنع المؤرخون النظريات لتبرير هذه السرقة. قال بعضهم إنّ المتحف البريطاني يوفّر الإنارة الكلية، كأنّ شمس اليونان أقل ضياءً من الأنيون البريطاني.. وقال آخرون إنّ المرمر لم يكن موجوداً بالأصل في المعبد لأنّ العثمانيون حوّلوه إلى مسجد، وهذا تحليل منطقي. لكن الأتراك حوّلوا المضمون وتركوا القالب على حاله، فلا يلزمك الكثير لتبدّل إلهاً بآخر.. ما أعظم هؤلاء المنظّرون! بودّي أن أرى ردود أفعالهم لو وجدوا قبّة دير ويستمنستر في متحف أثينا.. اللورد يدعى إلغن. اكتبه إن أردت، مع أنّ الإنكليز يميّزونه بين مئة ألف لورد.. واكتب أنّ تريستانو كان يرغب باسترجاع المرمر لأصحابه الأصليين، لأنه معبد عظيم لو لم تبنه أثينا لما حصل عليه مجلس اللوردات، ولبقي البريطانيون متفرغين لتربية المواشي.. واذكر اسم بايرون أمامهم، الذي مات متأثراً بقضية كهذه على الأرجح. وأضف أنّ شاعراً يونانياً كبيراً كان طالب بذاك المرمر، علاوة على الطلبات الدبلوماسية. ولم يكن أحد يعرفه لأنه عاش مغموراً ومتنقلاً من شقة أجار لأخرى. أجل، إنه كافافيس. واكتب أنّ تريستانو يتمنى أن يكرر طلب ذاك الشاعر العظيم. لقد مضى قرن على هذا الطلب، ولا بد أنه مرّ على مسامع البريطانيين.. هاهو اقتراحي: أن أروي لك ما ترغب بمعرفته مقابل أن تكتب أمنية تريستانو. ستعود عليك هذه الأمنية بالربح.. هل أنت موافق؟.. «جنتلمان آغريمنت» كما يسمّيه الإنكليز.. إنه اتفاق على الطريقة القديمة، اتفاق بالكلمة بين رجلين شريفين..

وما الذي بيننا سوى الكلمات؟!.. ها هي يدي إن كنت موافقاً. مازال بوسعي أن أشدّ بها يداً أخرى، لتكون المرة الأولى التي تلمسني فيها.

أتعلم ما الذي تعنيه كلمة «صداع»؟.. لا أحدّثك عن الشقيقة، أو ألم في الرأس، الصداع شيء آخر: إنه أشياء كثيرة بآن واحد، وليس من السهل أن تعطي تعريفاً لشيء ما يتكون من عدّة أشياء. يتشكل في البدء كرنين جرس خفيف يشبه الأزيز أو النواح الثاقب. يأتيك من البعيد، من أعماقك السحيقة، وفجأة يجتاح ما يحيطك بدموية، كأن ذاك الأزيز زلزالاً سفّاحاً يذبح الحياة. وتشعر أنّ لعينيك شكل الموشور، فتتضخم كينونة الأشياء وحوافّها في المكان، وتمتد حتى تغيّر أبعادها. فتتغير معانيها بموازاة هذا التغيّر الطارئ. الخزانة تصبح مكعّباً، ولا تحمل معنى الخزانة التقليدي. يتموج كل شيء في تلك اللحظة. المكان ينتفخ كالمدّ البحري ويصل الصداع كدوار البحر، كأنك تجلس على منفاخ الحدّاد، فتنضمّ أنت أيضاً إلى حالة التموج. ويصبح البلاط سائلاً، وتسمع صوت رئة عملاقة بحجم الكون تتنفس أمامك وفي داخلك بآن واحد. وما أنت سوى ذرة غبار تتقلب في صمام تلك الرئة التي تتسع وتنقبض في كل شهقة. فتضغط على صدغيك محاولاً أن تستوعب الموجات التي تنفجر في رأسك المتصدع كعاصفة أغرقتك في خضمّها. هذا هو الصداع.. أول نوبة أصابت تريستانو كانت في العاشر من آب. حدثت أمور كثيرة في آب، وحياته تحمل اسم هذا الشهر عنواناً لها، وكثير من الرجال هكذا كأورانوس وساثورن. حدثت أشياء كثيرة ونسيت معظمها ولكن من المستحيل أن أنسى ذلك الحدث. يؤمن المعتقد الشعبي بأنّ في ليلة العاشر من آب، عيد القديس لورنس، تتهاوى النجوم. ربما سقطت

إحداها أو نيزك ما على رأسه بالضبط. لكنه لم يسقط ليلاً، بل في الظهيرة. وكان تريستانو في هذا البيت حيث عاد للنقاهة، يجلس تحت شجرة البلوط، ويدقق النظر بثمر الحصرم ويعدّ حبوبه كأنها سنين حياته. كان يهمس بنغمة مزعجة: حبة لي.. وحبة لك.. حبة لي.. وحبة لك.. وفي تلك اللحظة، سمع أزيزاً غريباً لم يسمع بمثله من قبل، ولم يعد الحصرم حصرماً. وتصدّع الهواء متشرّخاً كالخنادق. فصعد الغثيان إلى حلقه، وظلّ يترنح، كأنّ الأرض ظهر سفينة تتقاذفها الأمواج، حتى وصل إلى غرفته. أغلق الباب على نفسه، وارتمى على السرير، وعانق المخدة. وحينها انطلق بأول رحلات الصداع التي سترافقه طويلاً، مجتازاً غيوماً مليئة بالجراد في امتداد اللاشيء الرحب الذي تتشابه اتجاهاته كلها.. في اليوم السابق مات الفتى الذي أحبّه كابن له.. تطايرت أشلاؤه في الهواء.. اللعنة!

كان ينظر إلى أضواء السهل مساء، ويفكر بالأزمنة الماضية وتلك الأيام حين كان الجميع يتلاعبون بمستقبل بلاده في الجبال.. ما من شك أنّ الجميع ضدّ النازيين وبقايا الفاشية، لكنّ الرؤى صوب المستقبل تختلف من ثائر لآخر. وأعرف الآن أنّ المصير ليس واحداً بل متعدداً كأطياف اللون. تتدرج فيما بينها بالظاهر، دون أن تلاحظ ذلك، من الأزرق حتى البنفسجي مع أنهما لونان متمايزان. جرّبْ أن تعيش ضمن التدرجات تفهمْ حجم الكثافة.. لكنه حينها كان يرى العالم بشكل ثنائي التركيب، فالطبيعة عوّدتنا على هذا الشكل كما تعلم، ونحن اقتنعنا بسذاجة: أبيض وأسود، ساخن وبارد، ذكر وأنثى. وهل سألت نفسك أيها الكاتب عن سبب رؤيتنا للحياة بهذا الشكل؟ أعتقد أنك فعلت، ولهذا اتصلت بك.. حينذاك كان يرى المستقبل

مقسـوماً لشـقّين، لأنه ظن أنّ التاريخ مقسـوم لشـقّين أيضاً. يا له من مغفل، لم يعرف أنّ التاريخ نصنعه نحن ونبنيه بأيدينا، فهو من ابتكارنا وبوسعنا أن نشيّد تاريخاً آخر إن أردنا، أو إن لم يعجبنا شكله الثنائي، أو إن امتلكنا الشجاعة لنقول: سيدي التاريخ، إنك تافه، فلا تتكبّرْ علينا وأنت لسـت إلاّ افتراضاً من بنات أفكارنا، ونودّ الآن أن نصنع منك شـيئاً آخر يوافق مزاجنا إن لم يكن لديك مانع.. المشـكلة أننا حينها نكون مجرّد جثث عاجزة، مثلي تماماً. وعندئذ تفهم أنّ التاريخ وهم خرافي ليس بوسعك أن تغيّر فيه شيئاً ما دام أنه انقضى.. التاريخ مثل الحب، إنه موسيقى، وأنت العازف. وبينما تعزف أنغامه تكون عازفاً ماهراً، كعازف بوق ينفخ بكامل رئتيه أو عازف كمان يضرب الأوتار بقوسه السريع.. رائع، أداء متكامل، تصفيق. ولكنك لا تقرأ التدوين الموسـيقي، بل تفهمه لاحقاً بوقت متأخر حين تتلاشـى الموسـيقى.. كان هنالك مسـتقبلين ممكنين بالنسـبة له حينئذ.. الأول يعرفه جيداً لأنـه يعـرف البلـد الـذي اخترعـه. ولكن في إيطاليا لا يمكن لأحد أن يتفوه به، فهو مستقبل رمادي يحكم شؤونه مكتب سياسي يتعامل مع المواطنين ليس كأفراد بل كقطع محرّك جبّار، وهم ليسوا إلا مسننات في عجلة صغيرة تافهة تدور لأجل العجلة الكبرى، بغية إنشاء مجتمع لا طبقات فيه، وكلنا سواسية وأفكارنا متشابهة ومتاعبنا متشابهة وحتى أفراحنا ومصائرنا متشـابهة. أتريد قليلاً من السـعادة الكافية يا رفيق؟ هل تحمل بطاقة الحزب؟ هل لديك بطاقة تأمين السعادة الاجتماعية؟ جيد جيد.. هل تحمل بطاقة زوجتك؟.. جيد.. وبطاقة الأولاد؟.. جيد جداً..كم عددكم؟ أربعة.. حسناً.. يبدو أنّ كل شيء على قدم وساق يا رفيق، لك الحق في أربع حصص من السعادة. وقّع على هذه الورقة

ودعني أضع الختم. أنت رفيق شاطر، والرفيق الأعلى الذي يرافقنا جميعاً في البحث عن السعادة يحب الرفاق الشاطرين أمثالك ويتمنى لكم السعادة الضرورية والعادلة من أجل عالم عادل نسعى لبنائه.. عالم عادل في مجتمع عادل مكوّن من رفاق عادلين مثلك أيها الرفيق العزيز. هكذا تكلّم الرفيق الأعلى في نهاية خطابه.. سمعت كلماته، كانت موجهة للرفاق الشاطرين أمثالك الذين يعملون في سبيل مجتمع عادل ويستحقون حصة عادلة من السعادة. ماذا تريد بعد يا رفيق؟.. لقد أعطيتك ختم المكتب السياسي، كل شيء رسميٌّ وعلى ما يرام، عد إلى بيتك المخبريّ، واحمل لرفاقك العائليين السلام الأخوي من الرفيق الأعلى ولا تسبّب المتاعب. ما رأيك؟.. لا بأس، لقد ناضلت في الجبال، وقتلت بمفردك سريّة من الفاشيين، إنك بطل يا رفيق، وقد منحت قلادة على بطولتك إن لم أخطئ. خسرت إصبعين عندما علقا في مقبض الرشاش. من غير المجدي أن تريني يدك، فكل شيء مكتوب في ملفّك، وهذا الملفّ أهم من يدك يا رفيق.. لكنك لم تخسر خصيتيك أيها الرفيق العزيز. اعذرني على رفع الكلفة، بوسعنا أن نتمازح طالما أننا رفاقاً.. الرفاق الشجعان أمثالك لا يخسرون خصيتيهم.. في المدرّج الروماني كان هناك مصارعيَن مغواريّن كليهما، لكنّ أحدهما كان مقداماً بابتسامة خبيثة تجعله يشبه ممثلاً أمريكياً.. بعض المصارعين أقوياء لكنهم أغبياء يا رفيق، يتبخترون كالطواويس وينتهي بهم المطاف إلى خسارة خصيتيهم. أما أنت شجاع وداهية على وجه الخصوص يا رفيق.. وإياك أن تبالغ بدهائك لأننا نعرف كل شيء عنك. نعرف أنك ذهبت لتعيش في مدينة فنية، ألا تتفلسف بعض الشيء في اتخاذ هكذا قرار؟.. نعرف أنّ لديك زوجةً طيبة

لكنها لا تكفيك، فأنت تعشق الحرية والعدالة أيضاً، ألست برجوازياً بعض الشيء يا رفيق؟ اعذرني على وقاحتي لكنك تبدو برجوازياً. وأنت تعرف أنّ الإيديولوجيا التحررية بدأت ثوريّة، وإن مارستها بالخفاء تصبح قريبة للبرجوازية الصغيرة. ونحن نؤمن بالعائلة لأنها النواة الثورية للمجتمع الثوري يا رفيق.. لا أريدك أن تزعج الرفيق الأعلى، لأنه يراقبنا جميعاً.. ينام ساعتين في الليل إذ يقضيه ساهراً عند النافذة التي تشرف على الساحة الشاسعة حيث استدعى العرض العسكري احتفاءً بالعائدين من الحرب أمثالك الذين أنقذوا الوطن.. لا بأس يا رفيق، إنه يراك من النافذة، ويعلم أنك في فجر ذاك اليوم التاريخي قتلت سريّة بأكملها من الأعداء لأجل الوطن.. يعرف ذلك أكثر منك يا رفيق.. كم ساعة تنام في الليل؟ سبعة؟! كثير يا رفيق، إنها إجازة بالأحرى.. هو ينام ساعة أو اثنتين في كل ليلة.. لا تُحزنِ الرفيق الأعلى يا رفيق. إنّ سبع ساعات نوم حصة وفيرة حقاً.. عرفنا أنك تكتب شعراً، وكم يسعدنا هذا.. حذار من الرومنسية الحميمة. نعرف أنّ الشعراء الرومنسيون يهتّمون بالماضي. فحذار أن تشرب من الماضي كثيراً يا رفيق، قد يسبّب ألماً في رأسك.. والآن استرح في بيتك العامل حيث تنتظرك رفيقتك، امض بسلام يا رفيق ولا تعد لإزعاجنا...

تقول القصيدة: رأيت ألغازاً أخرى كأزهار تتفتح في الفراغ، تنانير فارغة تثور على أجساد من هواء، ورأيت قلب فتاة منسيّ في القفص، وروث أسد، كان السيرك بعيداً، والزمان كحصن وسوره من صخر ودهشة، تقف عليه خمامة عمياء، فكيف نفسّر ما لا يقصّه الأبطال، وكيف نهزم البحر إن كانت الملاحة محلّلة وصنع القوارب حرام؟..

عادت إلى ذهني فراولين التي ترهقني بأشعارها، وأنت لا يهمك شيء. أما أنا فأهتم بكل شيء.. أرغب بمطر آذار ونحن في آب، وليس بوسعنا فعل شيء كما تقول، وإنها محقة في هذا..

إنني متعب لكنني لم أنهِ ما عندي. دعني ألتقط أنفاسي وابق هنا وكن آذاناً صاغية.. كان هناك مستقبل آخر، إضافة إلى ذاك الذي حدّثتك عنه، يحتوي على الحرية ببساطة وهي ليست شيئاً عادياً.. كان المشهد هكذا على تلك الجبال، أتفهمني؟... للغابة دربان وعليه أن يختار بينهما، والبندقية تصوّب على هدف واحد وتطلق في اتجاه واحد وتخضع لعلم توجيه القذائف. وهذا العلم ليس افتراضياً، لأنه يعتمد على علم المساحة، ولا يستطيع أحد أن يغالب المساحة يا عزيزي الكاتب. الزاوية حادة والأخرى منفرجة ولا يتعلق تعديل الزوايا برغباتك. كان على مفترق طرق، والمشكلة تنقسم تماماً داخل هدف البندقية. إذا ضغط الزناد على جهة سيكون بمجتمع بلا طبقات يحرم المرء من استقلاليته، وإذا ضغط على الجهة الأخرى فسوف يظلّ العالم على عهده، فيه الفقير والغني، ولكن لا بأس فهو عالم حرّ بالمقابل.. عليه أن يردي أحد المصيرين قتيلاً وفق اختياره. وأنت تعلم ماذا اختار، لأنك تعرف ما هي الحرية. أنت مثقّف ليبرالي مصمّم على مواقفك. واستلهمت من المقابلة التي أجراها معه صحفي ماكر بالخلسة، فألّفت أقصوصة من كلمات قليلة.. اعذرني على زلّة اللسان، أردت أن أقول إنها رواية موجزة، ومن الغباء أن نقيس الروايات بالأمتار كأنّ الكميّة هي المعيار.. سأكون صريحاً، صفحاتك الثمانون تشبه الآجرّ الذي يباع بالجملة، حيث ظهرت كأنك رافقت تريستانو جنباً إلى جنب في أعالي الجبال وفي ذلك اليوم

تحديداً. بل كنت أنت من يصوّب البندقية ويختار الاتجاه ويحدّد الهدف ويطلق النار، بووم.. تهانينا، لقد اخترت الديمقراطية، وكان هذا خياره أيضاً، لأنك تقمصت شخصيته بشكل رائع. يا لقدرتك على المحاكاة، تبدو كأنك هو حقاً، بالنسبة لي تريستانو هو أنت، ولا أدري لمَ أحدّثك عنه وهو أنت. كتبت في روايتك ماذا فعل بدقة، فأنت من عانى مأزقه بضمير المتكلم لأنك كاتب موهوب ولهذا السبب دعوتك. في تلك الصفحات كنت تريستانو الخالي من العيوب وفوق أي جدال، حتى هو لم يستطع أن يكون هكذا في حياته كلها.. وغريب كيف نجحت في بضعة صفحات أن تكون ما عجز الشخص الحقيقي أن يكونه في حياته. ومن الإنصاف أن تحصل روايتك على جائزة، فالحقيقة تُكرَّم لأنها ملموسة كما قال الشاعر القذر. وإنّ الحياة تصبح حسية أكثر عندما تُكتب بحبر أسود على الورق الأبيض، وهذه حقيقة مطلقة. والحقيقة تُكتب أيضاً. وكنت مثله تعرف ما هي الحرية التي ذهبتما تبحثان عنها ووجدتماها في النهاية، لأنها غالية الثمن. وقلت إنّ الكلمة مقدسة، ومن حقها أن تكون حرة. ولكن ثمة تفصيل لم تفكّر به يا صديقي العزيز. اكتبه، لقد أتيت بك إلى هنا عمداً كي أخبرك به، وجاء بك الفضول عمداً لتكتب الحياة الحقيقية لتريستانو. وسأخبرك بهذا الحدث الصغير.. وأنت تشاهد التلفاز في صالونك، قد يخرج إليك مخلوق تلفزيوني بشحمه ولحمه وله كرش كبير ويحوم الذباب فوق عينيه.. قل له إذا تجسّد أمامك: تكلّم يا صديقي فأنت حر وكلمتك مقدسة وليس بوسع أياً كان أن يحرمك منها. هذه هي الحقيقة التي أضنينا أنفسنا، نحن عشّاق الحرية، لتتحقق ويكون بوسعك أن تتكلم وتعبّر عن أفكارك الحرة. قوانيننا الحالية تسمح لك بالكلام،

فافتح فمك واطرد منه الذباب وتكلّم. لا ترمقني بهذه النظرة البلهاء، وأرجوك أن تنسى للحظة أنّ الغذاء لا يكفيك، وأنّك مصاب بأمراض غبية. تكلم وانسَ للحظة أنك بكلية واحدة. أفهم أنك تعاني، لكن الحسرة على كلية ناقصة لا تقارن اغتصاب حرية الكلمة، لا تهدر الفرصة.. بات بلدك في أسوأ حال كأنه جحيم أو جنة من الضرائب.. يا لها من ورطة.. مصانعنا تنهبكم، وتسرق كل المواد الأولية منكم.. إنها مشكلة أخرى تفرض نفسها على العالم الحر الذي يدعم طاغية ذبح آلاف المواطنين، وكان أوصله إلى سدّة الحكم بانقلاب على رئيس منتخب ديمقراطياً.. قد أخالفك الرأي، لذا أدعوك للكلام. لقد جئت إلى الحياة لكي تتكلم، والكلمة مقدسة وأنت حرّ. صدّقْ ما أقول، إنني كاتب ولست شخصاً عادياً، والكتّاب يعرفون جيداً ما تعني حرية الكلمة. وأنت حر بالكلام مثلي، أنا الذي اخترت درب الحرية ودافعت عنها. كفّ عن الكسل وانتهز هذه الفرصة الفريدة. إياك أن تظن أنهم سيدعونك إلى برنامج يناقش ظاهرة الحرية. أنت معي وجهاً لوجه في بيتي، وسأتعهد بشرح ما تقول. انطق بكلمة واحدة على الأقل، وإن لم تجدها في لغتك فانطقها بالإنكليزية كي يفهمك العالم بأسره: إنها فرييدووم، ردّدها، فرييدووم... هل فهمت ما عليك قوله أيها الكاتب كي تستحق الجائزة التي نلتها؟.. والآن اعذرني، اذهب للنوم، أريد أن أنام أيضاً لأني متعب.. يسعدني أنّ فراولين أعطتك غرفة بإطلالة ساحرة. كم جميلة تلك الأبراج العتيقة التي تبرز من النافذة. أرأيت كيف تطوف في حرّ الضحى، كأنها ترغب بالانفصال عن الأرض لتتجه نحو السماء؟ يا لها من أبراج طموحة.. تخيّل أنها بُنيت في العصور الوسطى.. هل تعني العصور الوسطى أنها

في المنتصف؟ تُرى وسط ماذا برأيك؟ وسط ما كان في السابق أم ما نحن عليه الآن؟ ثمة شيء ما في الوسط بين الواحد والآخر على أي حال.. أشعر أنّ الليل قد سكن، فمازلت أميّز الضوء ودرجاته كما أميّز درجات الظلام.. هل بوسعك أن تميّز درجات الظلام؟

وجدت اليوم موضوعاً شيقاً: الإنجاب! إنني في لحظة فلسفية أيها الكاتب، أشعر بلياقة عالية كفيلسوف.. هل كنت أباً؟.. إني واثق من ذلك، وربما جرّبت الأمر مع أكثر من امرأة. أنتم الكتّاب هكذا: تتخذون زوجة، تأتون منها بولد، وتهدونها كتاباً، لأنها تقف وراء كل رجل عظيم. وقد تتزوجون بأخرى، فتأتيكم بطفل آخر، وتهدونها كتاباً آخر وهكذا دواليك.. الكاتب يشبه الدبّور الملقّح.. إنكم توفّرون العمل لموظفي سجلّات النفوس والتوثيق.. فلا يمكننا أن ندع العرق البشري عرضة للاندثار. سلالة قابيل وآدابها تستحقّ البقاء، وإلا فما نفع هذا الكوكب البيضوي الذي يأخذنا بنزهة في الفضاء؟.. يفيد الإنجاب بإعطاء معنى للمستديرات حول المحور الذي يدور عليه كوكبنا الصغير الذي نشارك في ملكيته. حذار أن تتوهم بأنّ الأرض تدور. هذه فكرة عالم ملحد وثق بخدعة بصرية. فكل شيء ثابت على حاله منذ الأزل. وبطليموس كان عبقرياً لأنه رأى الأشياء مستقرة ونحن فقط من يتحرك ونظن أنّ الكون يتبع مشينا. فكل شيء جامد منذ بدء الخليقة كهذه الظهيرة الثابتة منذ أزمنة غابرة. ألا تشعر بعرير الجنادب والحرّ الذي يدخل من النافذة، والشمس التي تجبرنا على إغماض جفوننا لنستسلم للمحيط الساكن المتظاهر بالحركة؟ لكنه يتحرك رغم هذا.. كلا.. إنها أوهام.. لا شيء يتحرك.. الظهيرة كانت وستبقى ثابتة.. كم يوماً مضى من شهر آب منذ جئت لتكتب صوتي؟

سمعت الطبيب يهمس في أذن فراولين: انسي الأمر، لن يعيش أكثر من شـهر.. للمحتضرين حاسـة سـمع مرهفة.. كان هذا في أول يوم أحـد فـي مطلـع آب. أذكـره جيـداً لأنهـم بدأوا يحقنوننـي بالمورفين. هـذه المـادة البطليميـة إذ تميـل إلـى تثبيت كل شـيء، وتكثّف الوقت حتى تحوّله إلى فاكهة مجففة.. في المحصلة، لم يتّبع تريستانو درب الإنجاب المحتوم، ولم يشأ أن يبقي على كينونته في أي شخص آخر. فـكان يـرشّ نطافـه علـى بطن روزامونـدا. وترك حبه الحقيقي، مافري الغاليـة التـي رغـب بـأن يعطيهـا من نطافه، تركها في إحدى جزر بحر إيجه.. فليكن واضحاً أني أستعمل المجاز.. تركها كما فعل ثيسيوس مع آريانا، دون أن يعرف السـبب، ربما لأنه كان غبياً مثله. ومازلت أستعمل المجاز، لأن الأسطورة لا تقول ذلك، بل أقول أنا: ثيسيوس كان غبياً. وفي كثير من الأحيان يُقدم أحدهم على خطأ ارتكبه أحد آخر من قبل دون أن يعرف السبب وراء ذلك. ثم تمرّ الحياة لتنهش ضميره، وهو يضرب رأسه في الحائط، أو في عمود الكرمة كما حدث لتريستانو..

خـرج إلـى الحقـل ليـلاً يتسـكع بيـن الحقول والكروم. اسـتلقى على الأرض العارية كجثة هامدة، وغطّى وجهه بقطعة قماش، وأومأ للقمـر بتحيـة حـداد خاصـة. وضـع قليلاً من التراب في فمه ونظر إلى فلك السماء. ومن حين لآخر كان يرفع ذراعيه ليعانق القمر وينوح: أتسـمعني أيهـا القمـر المبـارك؟ أتفهمنـي وأنـت أمير المتسـكعين في السـماوات الهادئـة؟ قـل لـي كيـف أتسـكع مثلك لأنسـى وقد أصبح مستقبلي كساعات لا تحصى وزماني مفتوحٌ مفتوح! تعطّل الزمن ولو كنت ميتا لما حدث الذي حدث.. تيبّسـت أغصاني ومرّت الفصول

ولم تمت إلا الأزهار.. لماذا يا قمر لماذا؟.. أنت الذي تُسري النسغَ في ساق النبات وتحرّك البحار وتخمّر كائنات الأرض.. أيها القمر الرقيق الذي يعزف الكمان.. كجوهرة من زعفران.. هلّا قمت ببعض أسحارك؟ ثمة مكان في الأرض، إذا ناشدناك فيه كما يفعل الرهبان القدماء تحيي النبات الرميم.. أيها القادر المزدهر الذي تهيمن على شواطئ القاع، أعد إليّ حياتي التي سرقتها مني! كان لدي طفل سعيد أحمله على كتفي وألاعبه تحت الدالية ليقطف العنب بضحكاته.. كم كنت أحبه كابن لي، وكنت أرى فيه أيامي التي لم أعشها.. لم يكن له لون بشرتي، بل كان أسمر كرائحة العنبر، وشعره أسود اللون ورثه عن أجداده الأندلسيين. لكنه كان سيرث نظرتي، لأنه كل ما بقي لديّ مما حاربت لأجله. لقد سمحت أيها القمر أن يكون في الأرض تراباً ولم تعطني شرف أن أدفنه فيها، فمزّق الجنون جسده وصار أشلاء تائهة متناثرة. ولم أكن أعرف ذلك. كان ذاك الفتى كحيوان بريّ بمظهر أنيق. أريده معي، أرجوك يا قمر. سأبقى بجانبه أعلّمه ما رغبت بإطلاعه عليه. أعترف أنّ الذنب ذنبي، يا قمر، فقد أخطأت في غيابي المستمر، وها هو غائب عني الآن.. هلّا أعدتني إلى الوراء؟.. دعني أعيش مجدداً الوقت الذي هدرتُه. لم أتوقع هذا المآل يا قمر. ظننت أنني أعرف كل شيء ولم أكن أعرف شيئاً..

كنت مسترسلاً في الحديث عن شيء لم أعد أذكره.. أكتبته أم أضعت الخيط أنت أيضاً؟ لا يجدر بكاتب مثلك أن يضيّع الخيط، وإلاّ يهبط مستواك في السوق.. إنكم تجازفون بالخوض في الأحداث حتى تصلون إلى هوّة عميقة يضيع في لغزها المغزى.. ثم تبررون أنها رواية مفتوحة لكل التأويلات، وهكذا تحلّ المشكلة.. كم أنتم

مبدعـون!.. أعطنـي قليـلاً مـن الماء، واعذرنـي إن عاملتك كممرض. أعطني الكأس والمصاصة كي لا أبلل نفسي. لا تنادِ فراولين كي لا تقاطـع حديثنـا وتجبرنـي علـى النوم.. عندما تحقنني توصيني بالنوم.. يـا للحمقـاء لا تعـرف أنّ وقتـي مفتـوح للنـوم متى اسـتطعت.. ثم إنّ الحقنة تعطيني تأثيراً عكسـياً، توقظني وأشـعر بخير، أؤكد لك. أشـعر بعد الحقنة أني أخف من الريشة.. وداعاً للألم وعذاب الضمير. فمن سوف يهتم بآلام تريستانو الغبي ومأزقه الذي رسّخ أقدامه على رأس صاحبـه كوسـواس قهـري؟! لكنـك تعجـز عن تفهّم الأمر، لأنكم أيها الأدباء تحلّون جميع المشـاكل بسـرعة فائقة: تكتبون رواية، وتدّعون وجـود الحـلّ فـي ثناياهـا.. ففي كتابك مثلاً، تريسـتانو يحلّ المعضلة بسـهولة وبكلمة واحدة.. الحرية.. وأنت تعرف مفهوم الحرية عنده، فتجعلـه يغيّـر التصويـب لبضعـة ملمترات ليعثر على الحرية.. أخشـى أن لا تكمـن المشـكلة فـي نقطـة التصويـب. فكمـا تعلـم أنّ المجـرّد والملمـوس متباينـان، وينبغـي علـى الحريـة أن تطبّـق، وكيـف يطبّقها شخص مثلك يحترف الكتابة؟ سأقول لك: يطبّقها على مبدأ العملية التبديلية، وهي المعادلة التي درسناها في المرحلة الابتدائية: الناتج لا يتغير حتى إذا أعدت ترتيب العوامل. هكذا يفكّر شخص مثلك: إذا وافق حلّ معين مشكلة ما فإنه يوافق كل المشاكل، كما في الرياضيات. لقد قرأت روايتك عن تريستانو وأعجبتني. تجلّت عبقريتك بتجريب المعادلة.. هو وهي في الجبل، يخونها فتخونه، ثم يتوحدان أكثر من السابق. فلنقل أنهما تخطّيا امتحان العملية التبديلية، أو قد غيّرا ترتيب العوامل وبقي الناتج على حاله: الحبّ.. ولكن لا يا عزيزي. سأخبرك بما لم تتوقع.. الحقيقة أنّ الناتج يتغير بشكل كامل إذا أعدت ترتيب

العوامل، فالخيانة مرض معد لاهوية له، ينتقل من شخص لآخر ويناور تبعاً لأهوائه، ويتفشى بشكل فوضوي. وقد يكون له شكل هندسي محدد في البداية، واضح المعالم كأي شيء ملموس. لكنه يذوب ويتشرّخ ويغدو مستحيل القياس كظلّ خفيّ الأبعاد يغدر بالمساحة. هل بوسعك أن تقيس ظلّ غيمة عابرة؟.. قد تشغل بالك وتحاول وتقوم بحسابات معقدة وسريعة، وفي الوقت نفسه تنتقل الغيمة وظلّها يتبعها.. عجباً! لقد كانت منذ هنيهة على هذا المرج المشمس، لكنها انتقلت إلى سفح التّل.. هيا، اركض خلفها، اقبض عليها، وضع الملح على ظلّها.. هكذا يتذكر تريستانو ذاك الزمان الذي فكّر فيه بقيمة الظلّ. لكنه تأخّر، فالغيمة تسافر وفق مزاجها وتنتقل حيثما تريد. لا يُعقل كيف أضفت الغيوم بظلالها وكانت الأمور واضحة تحت الشمس المشعّة.. وليس هذا فحسب، التوقعات الجوية تنبأ بطقس جميل مستقر، وقد تعاون هو أيضاً مع النشرة الجوية.

تساقطت الأمطار بشدّة في الظهيرة... لا أقصد الطقس، بل إنها من قصائد فراولين المتعبة.. أخذت تمطر في الظهيرة، مع أنّ الصباح شهد جواً صافياً، أعرف أنّلون المطر الرمادي أنيق جداً وتضطهده الشمس الهمجية، وأعرف أيضاً أنّ الذي يتبدل وفقاً لانكسار الضوء لا يُحدث ضجة كما في السابق.. ومن قال إنني أريد أن أحدث ضجّة وسط هذا الجيل الحسّاس للغاية؟ ألا توافقني أيها الكاتب؟.. لقد أكل الزمان وشرب على من يتبدل وفقاً لانكسار الضوء.

كنت أتحدث عن الغيوم.. كيف لغيمة أن تسمح لنفسها بالقدوم من حيث لا نعلم لتضفي بظلالها على الأرض فجأة؟.. لا يجدر بكاتب مثلك يقيس الجو على المبدأ التبديلي أن يجيب

على هذا السؤال، مع أنك قادر على إحداث بعض الرطوبة بأقل ما عندك من أنفاس.. الجو حساس جداً ويكفيه القليل من أنفاسك كمساهمة متواضعة لتشكيل غيمة تتكفل بنقل الظل، فيتكدر المنظر فجأة. كانت الشمس تشع هذا الصباح مما جعلهم يتفاءلون بطقس معتدل. لكن الطقس تقلّب ولم يتوقع أحد ذلك، فالأدباء أمثالك لا يتنبؤون بهذه الأمور، إذ يستخدمون المجاز.. تبادل البطلان الخيانة ثم اعترفا بأخطائهما أخيراً، مما جعل الخيانة تقوّي الحب الكبير. تتصاعد الموسيقى حتى يتبادلان القبلات بشغف ومنظر الغروب خلفهما. تُشعل الأضواء، وتظهر عبارة «ذا إند» على الشاشة. يتأثر المشاهدون، وأحدهم يذرف الدموع أيضاً. يحين وقت العشاء ويعود الجميع إلى منازلهم مع انتهاء يوم العطلة.. يستحق تريستانو فيلماً كهذا يجعل منه قدوة.. ولم يكن الأمر كذلك مع الأسف. أتعرف ما طبيعة الخيانة الحقيقية؟ إنّ الخائن يخون من خان غيره بدوره، وليس لهذه الدوامة حدود، كظلّ الغيمة على الأرض.. وقد تبدأ بخيانة حبيبتك ثم تنتهي بخيانة نفسك، ولو كنت تعرف هذه النهاية الشنيعة لما قمت بالخيانة الأولى التي لم تكترث لتداعياتها. فأصبحت كارثة كالطوفان الذي يفيض بالكون فيسحبك معه، وأنت تحاول أن تقاوم بالسباحة عكس التيار.. أتفهمني؟ أنت تفهمني جيداً لأنك تعيش في هذا البلد، مثل تريستانو، ولم تكن من أولئك الذين تظاهروا بالجهل والنوم ومتابعة برامج الهشتك بشتك.. لقد فهمت مثلي إذن أنّ أحدهم أخلَّ بالعهود، مما يوازي الخيانة بالنسبة لك، أليس كذلك؟ كان تريستانو يفكّر مثلك تماماً، لكنك تغيّب هذا الأمر عن باله في روايتك لأنك ساذج. وأرى أنك أردت أن تعرف ما الذي فاتك فجئتني راكضاً حتى

هنا.. إنك منظّر عظيم رغم أنّك تستخدم أذنيك أكثر.. اعذرني إن سمّيتك هكذا. تحلّ بالصبر إن أردت أن تعرف دوافع تريستانو إلى مثل هذا التفكير، وخاصة كيف سأل نفسه عن الأسباب التي لم تسألها لنفسك. ولمَ لا إن كانت المبادئ مثالية وسوية؟ ألهذه المبادئ يقتل الناس بعضهم وتطير أشلاؤهم في الهواء؟ هل الحرية غالية لندفع فيها كل هذا الثمن؟.. كتب أحدهم: Nous n`osons plus chanter les roses [1].. أما زلت تجرؤ أن تغني للورود؟ ستفهم أنّ رجلًا مثل تريستانو فكّر بالذهاب إلى دلفوي، وكان هذا حلاً غبياً، بل إنه لا حل بالأحرى. ولكن ما الذي يبقى إذا صار كل شيء رماداً؟.. لقد راح يصلّي عند المبادئ وهو لم يكن يؤمن بأي إله. وقد تساءل عن مبادئ حضارته التي حمل السلاح في سبيلها، أو التي اعتقد أنها حضارته، مثل الفارس هانسلم في القصة الشعبية، الذي ذهب إلى الحروب الصليبية ووضع خوذة الحرية على رأسه كي لا يتألم كثيراً ولم يعد إلى دياره بعدها.. بودّي أن تجيبني على سؤال أيها الكاتب: هل تشبه الحضارة الغربية ذاك الظل؟ ثمّة غرب آخر يقع بعد المحيط، يحمل مشعلاً بيد وقنبلة ذرية بالأخرى، يدّعي أنه الممثّل الوحيد لحضارة الغرب الحقيقي. ففي أيّ غرب تنام الشمس في كوخها الوضيع؟ إنني متعب.. أشعر بالتعب فجأة بعد شعور بالتحسن.. لا بد أنّ الحرية والمساواة هي السبب.. أيها المواطن الكاتب، كأني أسمع من يقول: إليكم نشرة الأخبار المفصّلة عن المساواة، تصل إلى مستمعينا في برنامجنا الصباحي الحر وفق معطيات المعهد الوطني لقياس الحرية، معدل البورصة للمساواة اليوم هابط جداً، والسبب وجود شعب فقير

(1) الجملة واردة بالفرنسية وتعني: لم نعد نجرأ أن نغنّي للورود. (المترجم)

وشـرير في بلد يقع جنوب بلادنا، وعلينا أن نلقّنه درسـاً في الحرية، فانتقلـت البورصـة إلـى الجنوب.. أعزاءنا المسـتمعين، نحيطكم علماً أنّ بورصتنـا الحـرة افتتحـت وكالـة لكـرة القدم فـي عاصمة ذاك البلد وبمعدّل فائدة مرتفع، هذا المنهج وضعه خبراؤنا الاقتصاديون الجدد، الذي يعيد طرح المنهج القديم المسمّى "من المنتج إلى المستهلك"، عدّاد البورصة مركّب بخصية أولئك الزبائن الأشرار، وكلّما كان هنا كمحاولة لارتفاع معدّل البورصة المحلية ستنطلق صعقة كهربائية من المسـتهلكين في ذاك البلد دون أن يفهمونها.. إنه منهج مشـخّص.. للسـادة زبائن الجنس اللطيف، لدينا عدّاد يتفاعل مع المحطّ الأخير للمبيض أو مع الجنين في حال كانت السيدات حوامل.. أيها الكاتب، عـدّاد الحريـة الدقيـق يصـل إلى زبائن العالم بأسـره، وطننا هو العالم بأسره، الحرية قانوننا، وهي فكرة عظيمة تثير إعجاب الجميع.. أطلتُ السـهرة عليك. اذهب واسـترح.. قد لا تكترث للتأخير لكني متعب كفايـة. مـرّرْ لـي المبولـة قبـل أن تخرج. ضعها هنا على الدُّرج بقربي. لا تقلق، سوف أدُخِل الخرطوم بنفسي، فلم أناديك لأحطّ من شأنك.

قال فيروتشو إنّ من يكتب مذكّراته يراها أهمّ من الأحداث التي يكتـب عنهـا، وينخـدع بهـذا الوهـم. فما رأيك أنت الذي تكتب سـيرة حياة؟

اعذرني عمّا تفوهت به البارحة، أو هذا الصباح.. لم أعد أذكر متـى تحادثنـا آخـر مـرة.. ألتمـس منـك السـماح لأني لم أكـن لطيفاً. بالمقابـل لـم تكـن لتتوقـع لطفاً مـن شـخص يعاني ما أعانيـه.. أفهم حساسية البشر تجاه أمور معيّنة. فأنت تحب تلك الرواية لأنك صاحبها وقـد كوفئـت عليهـا.. أخبرتنـي فراوليـن أنك توعكـت قليلاً وأصابك

الدوار هذا اليوم، فأصبحت تعاملك بلطف.. قالت لي: أيها الفتى، إنك تعذّبه بالإصغاء إليك لساعات متواصلة خلال الطقس الحار وداخل غرفة مخنوقة تفوح منها المعقمات.. لكنك لا تشعر بالدوار مثلي، بل كنت مستاءً فحسب، لأني نقدت رأيك في الحياة.. تحمّلني قليلاً! تذكرت إحدى توصيفاتك عندما كان تريستانو ينتظر خروج الألمان من ذلك البيت. إنك تصف وجهه وتجعله يشبه ممثلاً أمريكياً ذاع صيته في ذاك الزمان. وسألت نفسي مراراً كيف خطرت في بالك هذه الفكرة.. يا إلهي! كانت هذه دعابة بينه وبين مارلين فقط، لا يعرف أحد بأمرها. كانت مارلين تسمّيه كلارك نسبة إلى ذاك الممثل. هل تلقّفتها عن طريق الصدفة؟.. لا يمكن أن تكون إلاّ كذلك لأنك شاب، ولم تتسنّ لك الفرصة أن تتعرف على أولئك الثوار في الجبل الذين يعرفون هذه الدعابة.. وثمّة فقرة في روايتك لا تعجبني أبداً: كلارك ينتظر متمترساً خلف الصخرة طويلاً، وغالباً ما كان يأخذ دور الفريسة، لكنه لعب دور الصياد حينها كما في أوقات أخرى... لا تبدو الفقرة من بنات أفكارك، كأنك نسختها من أحدهم. إنك تستخدم أسلوباً أكثر حكمة في الكتابة، وتسلّط الضوء على الجوانب الغامضة. أنت صياد من نوع آخر، مهمتك الاصطياد في المياه العكرة.. لديك قدرة رهيبة على المراقبة تصل حتى إلى ذاتك. وأرى أنك في هذا تقع في فخ الواقعية الجديدة من حيث الأسلوب، كأنّ الحقيقة تمثّل الجانب المرئي من الأمور فقط. هل يعقل أنك ترى السيرة قادرة على استيعاب الحياة بأكملها؟ هذه الفكرة تليق بسجلّ النفوس ولا تناسب كاتباً مثلك.. لا تقل لي إنك مولع بالسير، وخاصة تلك التي تستخلص العبرة وتفسّر مغزى الحياة! لي بشرة تغطّيني، فهل تفضّل

أن ترفع قشرة من الجلد لترى ما تحتها؟ لقد فكرت منذ يومين أنّك مولع بالأقمشة.. لكم سأكون سعيداً إن أخبرتني بالحقيقة قبل أن ترحل، أي قبل أن أرحل أنا.. لم أستفد من جرعة المورفين التي حُقنت بها منذ قليل إذ ليس لها تأثير يُذكر ضدّ الآلام. أخبرْ فراولين بهذا الأمر عندما تخرج من هنا، وقل لها أن تعطيني قليلاً من الماء المقطّر.. دعها تحقنني بماء مقطّر له تأثير وهمي.. كأني أسمع هذا الطبيب اليافع الذي يشرف على موتي حسب القواعد الصحية.. أرجوك، قل لها أن تعطيني مورفيناً حقيقياً، وأن تضع المورفين في هذه الساعة المائية.. ساعة مائية تعمل بالمورفين، أتعجبك الفكرة؟.. أنا أؤمن بالكيمياء، فلتؤمن بها أنت أيضاً! خذ النصائح من رجل امتهن الكتابة قبلك ولن تتفوق عليه. أكّد ذاك الكاتب أنّ المشاعر ليست سوى اختلاطات كيميائية، يسمّيها علاقات منتخبة أو توازنات تهيّؤها الطبيعة. أتفهمني؟ إنها مسألة ذرّات.. ذرة من هنا تستلطف ذرة من هناك، تُقدّر العيارات وتتم التغيرات فتعشق أحداً أو تكرهه. عفواً، لقد أضعت الخيط من جديد. لديّ انطباع أني كنت أحدّثك عن الأديان. عموماً كنت أقول إنّ تريستانو لم يكن يؤمن بالإيمان، على حدّ تعبيري. لم يكن لديه هبة الإيمان، كما يقول المؤمنون. فكان بخطر حقيقي لأن هذه الفئة من الناس، الذين لا يؤمنون بالمجرّدات، يتورطون في الإيمان بالبشر لا لشيء سوى أنّهم مرئيون. والأسوأ من هذا أنّ تريستانو كان يظن أنه يؤمن بالبشر، لكني أرى أنّ قلبه لم يكن يؤمن بهم. لذا كان يؤمن بالأديان سراً في اللحظات الحرجة، ولم يكن الرهبان ليصلوا إلى مستوى هذا الإيمان العميق لو لم يتجرعوا شيئاً يشبه المورفين التي تقتصد فراولين بحقني به. ورغم أنّ تأثيره

لا يدوم طويلاً، لكنه يشعرك بالراحة خلال مدّته القصيرة. بالطبع إنه لا يرقى إلى مستوى الجنة وخلودها، فكان بالنسبة له كفندق يقضي فيه لحظات من حلم شيّق. لذا وجد الحل النهائي بابتكار مكان للحجّ في معبد مهجور يقصده السيّاح، لظنّهم أنّ الحطام يحتوي على روح قدّيسة تشرح الماضي وتقرأ الحاضر الغامض وتفسّر معنى الوجود.. أجل، معنى الحياة التي تحاول أن تنقلها إلى سيرة بجمع أشلائها المتناثرة.. سأحدّثك غداً بهذه الرحلة إذ تذكرت كل تفاصيلها.. واطمئن، سأبقى حياً حتى الغد، وما بعد الغد أيضاً.. سأخبرك متى نصل إلى نهاية هذا الفيلم الذي أعرفه أفضل منك. على أي حال، لا تتوقفْ عن كتابة سيرة تريستانو ما استطعت.. الحياة رواية قُرأت لمرة واحدة ومنذ زمن بعيد.. هكذا قال فيلسوف لا أذكر اسمه، لكنه ألماني على الأرجح، فوحدهم الألمان قادرون على قول فكرة حقيقية وشجاعة بهذا الحجم.. بمناسبة الحديث عن الحياة والروايات، أظن أنني تجاهلت النمط الثالث للسيرة، تلك على شكل رواية. اعذرني على إصراري، أعتقد أنك ألّفت كتابك على هذا النمط، مستلهماً من حياة تريستانو لبناء الشخصية الرئيسة. وكتبتها بضمير المتكلم كأنها كانت حياتك. لماذا كتبتني بضمير المتكلم؟ يبدو لك الأمر تافه لكنه حساس جداً. لماذا أصبحت تريستانو؟ لماذا وضعت نفسك مكانه بعد ثلاثين عاماً من تلك الأحداث؟ حتى تريستانو تغيّر بلا أسباب بغضّ النظر عن أسبابك الشخصية. أعتقد أنّ ما من كاتب استطاع أن يبرّر احترافه للكتابة. ما الذي يربط حياتك بحياة تريستانو عموماً؟ لماذا طابقت نفسك به بالذات؟.. لماذا تكتب أيها الكاتب؟ هل تخشى من الموت؟ هل تود أن تكون شخصاً آخر؟ هل تحن إلى حضن

أمك؟ هل تحتاج لوالد كأنك طفل صغير؟.. ألا تكفيك الحياة؟ وأين خطر ببالك أن تكتب عن تريستانو، في الجبل؟.. لكنك لم تكن في الجبل والرشاش بين يديك يوماً. فلنقل أنك ذهبت إلى الجبل في إجازة قضيتها في فندق أوروبي عتيق حيث وصلت بالقطار إلى أماكن خلابة في غاية الروعة. وأنا أيضاً زرت فنادق من هذا النوع، يرتادها أصحاب مصانع وسياسيون وقضاة ورجال سلطة.. أيعقل أن تفكّر في الكتابة عن تريستانو عندما وجدت نفسك بين هؤلاء؟ ربما لأنك شاهدت فيلماً لآلان لاد يدعى فارس الوادي المنعزل. ألهذا زرعت الخوف من المحاكم السوفيتية وإعدامات موسكو في رأس تريستانو عندما كان يحارب؟ ألهذا جعلته يتخذ القرارات كأنه قاضي القضاة، مندفعاً تحت راية مبدأ مقدس لا يعلو أن يكون ذريعة الضمير الفردي للبطش يعرفه كل من أراد أن يبني مجتمعاً حراً؟ وكيف سمحت لنفسك أن تبسّط تريستانو إلى هذا الحد؟ أيها الكاتب، من أنت حتى تمتلك أزمة ضمير شخص آخر لا تعرفه؟.. جعلت تريستانو يبدو من حرّاس شارلمان، المنتقم الأعظم وقاهر الخونة. وما الذي تعرفه عن الخيانة الحقيقية؟ أرى أنك تعرف القليل، خيانة تُغتفر بعد عتاب وجيز كعصيان الأوامر واعترافات على السرير. ليس بوسعك أن تعرف جوهر الخيانة.. آتني بفراولين حالاً. قل لها إنها تخونني لمصلحتي كما تظن.. إنها ترتكب خيانة غبية عندما تحقنني بالمياه المقطّرة بدل المورفين.. أشعر بحلول الساعة الخامسة، وهو موعد الحقنة. أشتمّ الضوء فأعرف كم الساعة. ثم أسمع الجنادب التي تغنّي بغضب في موعدها المعتاد. إناث الجنادب تخشى أن لا يأتيها الذكر، فيشتدّ عريرها.. لا تقلقنّ! الذكر يصل دوماً حتى لو تأخر.. الذكر الخبيث

يحـرّك شـهوة الأنثـى الغبيـة حين يتجاهلها. ثـم يصل ويلقّحها أخيراً. فتنتهي القصة من طرفها لأنها وصلت إلى غايتها التي غنّت لأجلها. تنتفـخ بطنهـا، تبيـض فتمـوت. فتولد أنثى جديـدة تقضي صيفاً جديداً تغنّي لدعوة الذكر ليلقّحها، وهلمّ جرّا... سنكمل حديثنا لاحقاً، قل لفراوليـن أن تأتـي إلـيّ. ألمـي يتزايـد بقوة ويجعلني أتوتر. ألا تلاحظ مزاجي السـيئ؟ اذهب لتسـتريح أنت أيضاً، فالظهيرة شـاحبة وطويلة أيها الكاتب. اسـتمتع بقيلولة مسـتحقة أو تنزّه في المزرعة. ففراولين تدّعي أني أسجنك في هذه الغرفة المظلمة التي تفوح منها المعقّمات.

قرأت فراولين قصيدة الأحد، وقالت إنها لشاعر فارسي قديم.. لكني أشك أن يكون يوم أحد. تضيف فراولين أيام الأحد من عندها كـي تطيـل حياتـي. فقـد شـعرتُ بمرور الكثيـر من أيام الأحد في هذا الشـهر من آب.. إليك مطلع القصيدة يا فتى: (أيها السـاقي دع عنك التفكير بدوران الأرض، واعتن برأسي الذي لا ينفكّ عن الدوار)[1].. الساقي هو خادم الشاعر العجوز الذي يحمل إليه كؤوس النبيذ. وهو خادم وفيلسـوف معاً، مثل فراولين تماماً.. آه أيها السـاقي، أين ولّت أيام الماضي؟!.. قد يكون لتريستانو طريقة في إكمال القصيدة.. مثلاً:

أيها الساقي إني أستلقي على فراش الموت
أتبول عبر القثطرة، ليتني أقتلعها نكاية بمن وضعها
لم يبق من سيدك سوى حشرجات صوته
ووجه تلامسه المخدّة كموس حلاقة
وثمة آب يترقب ثابتاً خلف النافذة لا يقطعه سوى عرير الجنادب

(1) الشاعر الفارسي هو عمر الخيّام الذي تحدّث عن فكرة دوران الأرض مناجياً الساقي في رائعته (الرباعيات). (المترجم)

كم تبقّى للغد أيها الساقي؟ أما زال هناك الكثير؟..
لماذا تطول الأيام؟ لقد مرّ شهر بحاله ولم يمض هذا اليوم..
دع الغد يأتي ليحملني بعيداً..
ثمّة ذبابة غبية تناطح المرآة وتبحث عبثاً عن المخرج مثلي
لا شك أنها بحاجة للمورفين..
إني أسهب في الحديث،
فلمَ تصرّ على النبش في الأيام الماضية أيها الساقي؟!..

أرجوك، لا تدخل الممرضة الشابة التي جنّدتها فراولين لخدمتي، ضع لي المبولة بنفسك كي لا أتبول على الغطاء، لا أحتمل أن أدُخله ببساطة في عنق الزجاجة كأني أضع زهرة ذابلة.. أيها الساقي، عادت الريح الغربية في يوم صاف من شهر أيار، وكان تريستانو مستنداً إلى دراجته قرب كشك الجرائد، وشعر أنّ بلده إيطاليا قد تعافى وشفي العالم بأسره. وكان يغنّي: وطننا العالم كله.. قانوننا الحرية. سرت الحياة في عروقه كالنسغ.. كان ما يزال مستنداً إلى مقعد الدراجة متفائلاً بروعة النهار، بعد كل المذابح التي حصلت في مشهد عسكري دام.. كان ذلك في أيار من عام 1945، أذكره تماماً حتى الآن.

أتعرف متى اتضحت الأمور أمامه؟.. في السادس من آب عام 1945 وكان كل شيء قد انتهى، في الثامنة والربع صباحاً للدقة. في ذلك اليوم فهم تريستانو أنّ الوحش المهزوم ترك مكانه للوحوش المنتصرة.. كانت الجريمة الثانية ضد الإنسانية جمعاء في القرن السعيد الذي انتهى لتوّه، عندما سقطت القنبلة الذرية الأولى المستخدمة كسلاح تدمير شامل على مدينة من عالمنا خلال ذاك الصباح. فمحت معالمها وحوّلت مئتي ألف إنسان إلى رماد، ناهيك عن الآلاف الذين

قضـوا بعدهـا، وأولئـك الذيـن ولدوا أمواتاً، وآخرون ابتلعتهم أمراض سرطانية متنوعة.. كانوا مدنيين عزّل، ارتكبوا جريمة أنّ لا ذنب لهم.. هنـاك مـكان فـي هيروشـيما اسـمه جمباكـو دووم، أي القنبلـة الذرية. كان مركـز التفجيـر، فتحـوّل إلـى معـرض. في ذلـك المكان بالتحديد تبلغ درجة حرارة التراب نفس حرارة سـطح الشـمس. وقرب شـعلة السلام ثمّة قطعة من صخرة كانت عتبة لباب بناية، وهي كباقي عتبات البيوت حيث نمسح أحذيتنا قبيل الدخول. وعلى وجه تلك الصخرة المرمرية التي تبدو كإسفنجة تمتصّ الحبر، ثمّة آثار جسد بشري بيدين منفرجتين. هذا ما بقي من جسـد إنسـان أصبح سـائلاً على عتبة باب داره فـي الثامنـة والربـع بتاريـخ 6/ 8/ 1945.. إن سـافرت إلـى اليابان فاذهب لرؤيته، وتمتّع برحلة تثقيفية.. قيل إنّ سقوط الضحايا هناك لم يكن له مبرر، فرأس الثعبان قُطع في كلّ من برلين ودريسدن، وكانت الأسلحة الخفيفة ستكفي أمريكا لإخضاع اليابان.. إنهم مخطئون، لم يسـقط الأبرياء جزافى، بل اسـتفاد الحلفاء: لقد كانت رسـالة واضحة إلى العالم بأسره تعرّفه بسادته الجدد.. إنّ التاريخ مخلوق جليدي، لا يرحم أحداً ولا شيئاً: إنها فكرة فيلسوف ألماني انتحر في نزل صغير علـى الحـدود هاربـاً مـن فرانكـو وهتلـر وربمـا من نفسـه أيضاً. تأمّل تلك السـيدة التي ليس بقلبها رحمة ويغازلها الجميع رغم هذا، ولم يعجب بها.. كتب في تأملات أخرى أنّ العدو، أياً كان، إذا انتصر فلن ينجو منه أحد، حتى الأموات.. وأنا أضيف عدو الأشـرار أيضاً. فلا يمكن أن يكون عدو الأشرار طيباً. أليس كذلك أيها الكاتب؟ أتفهّم اعتراضك، لأني اختصرت فكرتي بشكل غير مفهوم.. من المؤكد أنه ما من خلاص إذا انتصر الشر.. لكن الخير ينتصر على الشر، برأيي،

حين يتّسم بالشر قليلاً وبأنه عديم الكمال في حقيقته.. فالحقيقة غير كاملة.. ذاك الصحفي، الذي احتال عليّ بالمقابلة منذ سنوات متظاهراً بالدردشة أثناء السهرة، كتب أنّ تريستانو آمن بوجود الله لكنه لم يكن يؤمن بديمومته. ومع الأسف لم تتعمق روايتك في تحليل هذه المسألة المهمة. وقد فهم الناس وجهة نظر تريستانو على أنها ساذجة، كأنه قصد أنّ المنيّة توافي الآلهة أيضاً، وهي فكرة تمرّ برأس الجميع. فكم صمد جوبتر قبل أن يستبدلوه! لم يكن هذا ما أراد تريستانو أن يقوله عموماً. لا ريب أنّ دوام الحال من المحال، وقد تنطبق هذه الحكمة على الله الذي نؤمن به، لكنه لن يموت ميتة طبيعية لنستبدله بآخر. أخشى أنه سيواجه ميتة شنيعة إذا ظلّت الأمور تتدهور كما هي الآن.. فكّرْ بما أقول.. تخيّلْ حرارة سطح الشمس تقفز من هيروشيما إلى أخرى حتى تجتاح الكوكب برمّته.. دويّ هائل يتبعه هدوء هائل أيضاً، ثم لا حياة لمن تنادي، جميع المخلوقات تصير في خبر كان.. هل سيظلّ الله حياً؟ لا بأس، ولكن بأي هدف إن لم يعد هناك أحد يؤمن بوجوده؟.. سيصبح إلهاً عاطلاً عن العمل، لا معنى لبقائه.. أضعت الخيط كالعادة. لقد عزمت أن أحدّثك عن أوراق هيبنوس اليوم.. أظن أننا بدأنا نتحدث عنها دون أن نلاحظ ذلك، حتى نجيب على المفكّر الذي تساءل عن جدوى الشعر بعد حدوث تلك المأساة. أظن أنّ الشعر هو الأمر الوحيد المجدي الذي بقي أمامنا، إذ ليس بإمكاننا سوى الإيمان بأحلامنا عندما فقدنا الثقة بمن خلّصنا من الوحش.. قلت لك سابقاً إنّ المسؤولية تبدأ من الأحلام.. تستحقّ هذه الجملة أن تُكتب بالخط العريض على أوراقنا، فاليد قصيرة مهما كان الذراع طويلاً، أما الأحلام تطير بعيداً طموحة جامحة..

إنها جراحة ترقيعية تتعدى قفص الوجود. أذكر أننا بدأنا بكتابة تلك الأوراق في عام 1952. وكنّا نؤلّف واحدة كلّ عام، فوصلنا حتى السادسة والثلاثين منذ أحد عشر عاماً عندما مات الآخرون.. ترجمنا كل الشعراء غير اليونانيين إلى اليونانية، أنا ودافني وأصدقاؤها يوحنا وآنتيوس. وكان الأخير يوقّع باسم ماريوس لأني كنت أسمّيه هكذا. وكنّا نطبع الأوراق بأيدينا، مستخدمين مكبساً حبرياً قديماً وضخماً يزن قرابة الطنّ، أخبرنا صاحبه القبرصي الذي باعنا إياه أنّ أجداده كانوا يطبعون عليه مناشيرهم ضد الدولة العثمانية.. ستسألني لماذا عملنا في كريت وليس في إيطاليا. كيف وشعبنا كلّه قدّيسون وبحارة وشعراء؟! لم تكن كريت تضاهي باريس طبعاً، لكن أهالي هذه الجزيرة لهم شخصية مميزة. أتعرف ماذا فعلوا بالغزاة الألمان؟ لقد ذبحوا جيشاً نازياً كاملاً مدججاً بأشنع الأسلحة.. كيف قاوموا؟ بمناجل الزيتون، وقتلوا الكثيرين بأيد عارية أيضاً.. أما إيطاليا ذاك الزمان، عندما كنتَ طفلاً، كانت محدودة بأحداث وشخصيات لا أسف على نسيانها، مثل جوزيبي بيلا وفرناندو تامبروني، وجرحى الحرب الذين تولّى أمورهم القدّيس كارلو نيوكي، وفيضانات البوليزين، وإعدام التائبين، وتماثيل العذراء الباكية.. أما زالت تلك التماثيل تذرف الدموع؟ يا لدموع التماثيل عندنا كم هي رخيصة! وأعداد القديسين والبحّارة تتزايد على ما أظن. بقي عندنا الشعراء لحسن الحظ، ولا بد أنهم مستاؤون من معيشتهم مع البقية جنباً إلى جنب. أنت كاتب ماهر، ولسوء الحظ أنك لا تكتب الشعر.. اعذرني، لقد أجحفت بحقك.. عليّ أن أشكرك لكتابة النثر. لو كنت شاعراً لما جئت لتجمع شظايا حكايتي بصبر جميل، ولاكتفيت بمرثية رائعة تخلّدني فيها أو هجائية حادة تقتلني

غيظاً حتى بعد مماتي.. أو ربما كنت ستكتب قصيدة عبثية على الطراز البريطاني كهذه مثلاً:

كان هناك بطل منهار في مالافراسكا
خبّأ كلّ أحلامه في جيبه
لكن الأشجار أضاعت أوراقها
فلم يبق لدى البطل المحطّم سوى أعواد يابسة
وأمنيات في النزع الأخير..

أوصيتك أن تعود إليّ في الواحدة ظهراً، لكنني لم أطلب منك أن توقظني. كنت نائماً قرير العين فجئت وأيقظتني. كم أنت لطيف وتطيع الأوامر أكثر مما ينبغي. أرجوك لا توقظني إن رأيتني نائماً. لقد نمت ساعتين، أي مئة وعشرين دقيقة، وكان بوسعي أن أنام مئتي دقيقة. لقد أضعت عليّ فرصة النوم مئتي دقيقة متواصلة..

في حياته وقعت أحداث كثيرة في شهر آب كما قلت لك سابقاً. كان يوماً صيفياً من حرارة وسراب على السهول والتلال يصل حتى إلى قلبيهما.. سراب كالغيم يلتفّ متلبداً. انتظرها تريستانو لتتكلم، لا بد أنها قطعت كل هذه المسافة لأمر خطير. نظر إلى تلك المرأة التي أحبّها بمشاعر جياشة، وقد أحاطت البقع الغامقة بعينيها كأنها ترتدي قناعاً مخيفاً. ولم يخفِ المنديل الزغب الذي بدأ ينمو على صدغيها. إنها تصغره بعشرة أعوام وتبدو أكبر بعشرين. فاستغرب تريستانو كيف مرّت الأيام بسرعة على لقائهما الأول في الجبل.. وكيف مرّت السنوات على رؤية لوحة الكلب المدفون في الرمل، والرحلة إلى إسبانيا. تساءل ثانية: لماذا إسبانيا بالذات؟.. فأجابت: لأنّ عملي وأصدقائي هناك.. كان في عينيها ظلام دامس كالخوف،

يفهمه تريستانو جيداً لأنه يعرف تلك العينين. ومظهرها أنيق رغم كل شيء، وهي تسترخي على مسند الديوان والساق على الساق. بقيا ساكتين، بينما هنالك صوت فتى يتحدث مع فراولين في عمق الدار.. قال: كم تمنت فراولين أن يكون لديها طفل.. فقالت: وكم تمنّيت أن أكون أماً لطفل من صلبك، لكنك استمتعت بتبديد النطاف على بطني.. مارلين تتحدث بهذه الطريقة، لها أوصاف خاصة، وتفشل في تقدير حجم الكلمات الإيطالية. تتكلم أحياناً كحمّال الحقائب، وأحياناً كراعٍ بروتستانتي.. استأنفت: عمره اثنا عشر عاماً، إنه يشبهك كثيراً، أرأيتَ؟.. فأجاب تريستانو: لا يبدو لي ذلك، يكفي أنك ترينه هكذا.. تابعت مارلين بنفس واحد: لقد اخترته من بين الكثيرين لأنه يشبهك، أنتما تتشابهان كقطرتي ماء.. اتسعت هوة الصمت بينهما. أشعلت سيجارة وعطست، فقالت: اعذرني إن بكيت.. لكنها لم تبكِ مطلقاً، ربما فكرت بالبكاء لكنها لم تفعل.. وصلت أغنية ألمانية من آخر الممر. فراولين لا تغنّي إلا باللحظات الخاصة.. روزاموندا أرجوك، تحدّثي بلغة مفهومة، ماذا تريدين؟.. اهتزّت السيجارة في شفتيها، فأطفأت جمرتها المشتعلة في فنجان الشاي وقالت: لقد تبنّيته من بين الكثير من الأيتام في إسبانيا الفقيرة لأنه أثار عواطفي. لا أخفيك أنه لا يشبهك إطلاقاً، لكن هذا ليس مهماً، سيكون كأنه ابنك، إنني فكرت دوماً أنه الولد الذي لم ترض يوماً أن تسعدني فيه، وها أنا أستودعك إياه. خذه أنت، أرجوك، لن أستطيع تربيته، فلا أظن أني سأعيش طويلاً.. كانت تنتظر أن يسألها عن السبب، لكنه ظل ساكتاً. فأبعدت المنديل ليظهر رأسها قليلاً.. أضافت: حاولت كثيراً لكن النتيجة سلبية دائماً، وكان الطبيب واضحاً معي،

ليس بوسعنا أن نفعل شيئاً بعد.. حكّت يديها بأظافرها دون أن تنتبه وأردفت: اسـمه إغناسـيو في سـجلّ النفوس، لكنني أسـميته كلارك.. أخرجت من حقيبتها محفظة فاخرة من الجلد الفاتح، وقالت واضعة إياها على الطاولة: هنا تجد كلّ وثائقه.. وحينها قال: مارلين، ظننتك تعرفين أنّي آتي إلى هذا البيت بين الحين والآخر في الصيف لأطمئنّ على العنب والزيتون، فأغسـتينو لا يسـتطيع القيام بكل شـيء لوحده. ثـم إنّ هـذا بيـت فراوليـن أيضـاً، ولا يمكنهـا الذهاب إلى مكان آخر. وأنا أمضي باقي السنة في كريتساه.. فقاطعته: أهي قريبة من أثينا؟.. فأجابهـا: كلا، إنهـا قريـة فـي كريـت.. أرأيتَ كيـف عانقك، إنه يعزك كثيـراً، لطالمـا حدّثتـه عنـك وهـو يعـرف كل شـيء عنّـا، وقد قلت له إنك أباه الحقيقي.. فذهل تريسـتانو: أنت مجنونة حقاً يا روزاموندا، ثمة قطعة في دماغك لا تعمل، ودماغك هذا كان متوقفاً عن العمل دوماً.. لا تجيبه مارلين، بل تكمل البحث في الحقيبة، ثم تقلبها على الديـوان. وجـدت صـورة صغيـرة بحجم الطابع لشـاب تتهدل خصلة شعره على ناصيته، ويرتدي معطفاً عسكرياً والرشاش على كتفه، وفي الخلفيـة كـوخ جبلـي علـى حدود غابة تبدو كبقعة ظلام غامقة. أعطته الصـورة وغمغمـت: لقـد حبلـت بالطفـل يوم التقطت هـذه الصورة.. فقال: إنها صورة من عشرين عاماً يا روزا، أنت لست على ما يرام. كفّي عن الكلام أرجوك، ما من داع لهذه الترّهات.. فأكملت حديثها كأنه لم يقاطعها: في أمريكا هنالك قبائل هندية تعتقد أنّ روح الرجل الذي تفكّر به المرأة ستأتي لها بطفل عاجلاً أم آجلاً.. أطلّت فراولين برأسها من الباب وقالت: إغناسيو يريد أن يرى الفرس، نحن ذاهبون إلى الإسطبل وسنعود بعد قليل. إذا رغبت السيدة مزيداً من الشاي،

سأحمل إليها الماء المغليّ.. كانت مارلين تعيد ركام أشيائها الخاصة إلـى الحقيبـة وقالـت علـى عجل: بوسـعك أن تبقـى معه في الصيف، ثلاثة أشـهر كل عام ليسـت قليلة. سـتكون أباً طيباً له، ثم إنك تعيش دون أولاد وقـد تكـون عقيمـاً. هـا أنـا أقدّم لك فرصة أن يكون لديك ابن، ليس من صلبك لكنك سـتربّيه. أرجوك. توفي والداي ولـم يعد لدي أحد في أمريكا.. سألها: وبقية العام؟ من سيهتم به هنا في هذا البيت؟.. نهضت، وأثناء ذلك ترنحت فاصطدمت بالطاولة وانسـكب قليل من الفنجان المليء بالشاي. قالت: هنا فراولين وأغستينو، يبدو أنهـم أنـاس طيبـون رغـم أنـي لا أعرفهما. ثم إنّ المدارس تدوم طيلة الشتاء، وبوسعك أن تجد مدرسة داخلية جيدة.. سألها: أين تذهبين؟.. قالت: سـأعود إلى إسـبانيا، لكني سـأجد نزلاً أبات فيه عند الشـاطئ لأنّ القطار السـريع سـينطلق صباح الغد والمحطة بعيدة ولا أريد أن أقود في الليل.. لفّت المنديل على عنقها، وتمهلت قليلاً ثم رسمت بشـفتيها على يدها ما يشـبه القبلة والتحية أو أمر بالسـكوت.. لكنه سألها: أينتظرك عملك؟.. فأجابت: لقد ارتبطنا بخيط مزدوج. وأحياناً تجبرك الحياة على أمور لم تكن ترغب بها. لم أفهم يوماً لماذا تدعوه بعمي وهو بعمرك.. فأجابها: لأنه يشبه العم سام الأمريكي، صاحب القبّعة المنجَّمة والمخططة وإصبع موجّه يقصد به (I want you). هل له دخل بإغناسيو؟.. فأجابت: لا، ليس له علاقة بالتبني، لكن إغناسيو يحبه كثيراً ويعتبره كعمّ له حقاً. وإن أراد الذهاب للقائه لا ينبغي أن تمنعه. لكن راقبه جيداً، فالعم يعمل بمهنة خطيرة عملتُ فيها سابقاً.. انطلقت نحو الباب يتّبعها تريستانو.. روزا سأرافقك، فالمسافة طويلة جـداً ولا أريـد أن تقطعـي هـذه التلال لوحـدك... يا للمجريات كيف

تقع!... لم يكن تريستانو يعرف أنه سيلتقي بكلبة في رمقها الأخير، خلال تلك الرحلة القصيرة مع مارلين، وأنهما سيسميانها فاندا، كذاك الكلب الذي أراها إياه على جدران إحدى المتاحف قبل سنين كثيرة.. لكنك تعرف هذا الحدث أيها الكاتب، لأنني رويته لك عندما خطر في ذهني ذات مرة.. يا للغرابة، إنك تعرف ما سيحدث لتريستانو في المستقبل. بوسعنا أن نتوقف عند هذا الحد.

آلو، من معي؟.. لقد تطايرت أشلاؤه في الهواء... ماذا تقول؟.. أقول إنّ أشلاء ابنك تطايرت في الهواء، ألا تفهمني؟... ومن أنت؟... لا عليك، إنني رجل كان يعرفه أفضل منك، فلا تطرح الكثير من الأسئلة، بل اخرس واسمعني جيداً. لقد كانت العبوة في حقيبته، فانفجرت بين ساقيه. كان ابنك فيلسوف أبله ويثرثر جداً عن انحطاط حضارة الغرب. كان ينبغي أن يكون ذكياً ليقوم ببعض أعمالنا، وربما استفدنا منه ذات مرة بمساعدة بسيطة دون أن يدير شيئاً. تخلّصنا منه بعملية سهلة لم تتطلب سوى وضع العبوة في الحقيبة.. اسمع أيها الوغد، لقد أطلقت علينا الرصاص منذ عدة سنوات، لكننا سنعفو عنك لأننا نودّك رغم كل الشرور، فأنت على الأقل لم تذهب إلى الهند لرحلات الاستجمام. أتسمعني؟.. نعرف أنّك رجل شجاع، وكنّا مثلك نحبّ ابنك. أعطيناه دور القديس جرجس الذي يقضي على التنين، الوحش الشيوعي.. اسمع، لا بد أنه ترك آثاراً خلفه، فهو فوضوي وثرثار ووثقنا به أكثر من اللازم.. أتسمعني؟.. اذهب إلى غرفته وانظر جيداً في كل مكان فيها. ابحث عن أجندة توجد فيها دلائل عن شخص يدعى أوماش، ثم احرقها.. أفهمت؟.. لست تنوي أن تفضح ابنك الصغير الآن وقد انفجرت حقيبة بين ساقيه؟..اسمع مني وافعل كما

أمرتك.. هيّا... انتهت المكالمة. أرأيت أيها الكاتب؟.. دع القنديل الزجاجي على الدُّرج موقداً، وضع عليه منديلاً ليخفّ وهجه. لا أريد البقاء في الظلام هذه الليلة. ربما نكون في الصباح، لكنها مشكلتك. حان الليل بالنسبة لي. تصبح على خير.

.. ورأيت الحياة تتجسد في حشرة: يا لها من آلة دقيقة ومعقدة بطيرانها وهبوطها وأزيزها المهتاج وضرب جناحيها الرقيق وساقيها القذرتين، رميت كل ما يربطني بالوجود في مجاري الصرف، كبقايا دولاب تفوح منه رائحة الحريق.. لقد فهمت إلى ماذا أشير.. كانت هذه إحدى قصائد فراولين المزعجة. ولم تخطر على بالي فجأة، بل لأنّ الرسائل أخذت تتوالى على تريستانو باستمرار. لكنني لا أرغب بالحديث عنها الآن كما لا أرغب بقول أي شيء. وعلى أي حال أرجوك أن تبقى معي، سأروي عليك أشياء أخرى.. ما عليك سوى التحلّي بالصبر.

هلاّ شرحت لي ما الذي تقصده بالشعور أنّ كل شيء يتوقف؟ قال الطبيب زيغلر وتريستانو مستلق على الأريكة الوثيرة، وذراعه تتأرجح ويغطي بالآخر عينيه من وهج الشمس. قال: مثل هذه الظهيرة إذ يغمر الجمود كل شيء. كأنّ الكون يتخمر في جمود يمسح معالم الزمان والمكان، كبعض اللوحات في العصور الوسطى حيث يظهر القديس المتصوف مأخوذاً بفتنة التأمل خلال لحظة أبدية. وقد يُضرب الناقوس من خلفه، ويصدح الديك ويعوي الكلب، فيخدش الضجيج تلك اللحظة ويتلاشى سحرها. أمرّ بلحظات أشعر فيها بأنني جماد ضمن سبات الوقت، مثل هذه الظهيرة، كأني انتقلت آنياً إلى عالم آخر... توقف الطبيب حينها عن الذهاب والمجيء في العيادة، ووقف

يفكّر وراء تريستانو ويداه خلف ظهره.. تابع، سيد تريستانو، تابع... فأضاف: ولدي أحاسيس أخرى كأحلام اليقظة، حينما ترجع إليّ بعض الذكريات المنسية منذ زمن.. ذكريات لم أكن أظن أنها تخصّني، تتدفق بسرعة لا توصف وتمر أمام عينيّ كأني أتابع فيلماً على جدار ما. وعيناي هما اللتان تعرضان هذا الفيلم.. همس الطبيب سائلاً: هلّا وصفت لي ماذا ترى؟.. فصمت تريستانو، وانتظر الطبيب بفارغ الصبر ثم قال: إن كانت لديك رغبة بالزفير فافعل. لا تستنشق، بل ازفر. فالزفير حيلة ابتكرها الجسد ليُخرج ذلك الضيْق المتسع والزائف على شكل هواء، ويسميه البريطانيون (spleen). حتى التثاؤب له نفس الوظيفة بمستوىً متدنٍّ ليطرد الضجر العام. لكن ضجرك مختلف، إنه التعب من الوجود. واصل الزفير يا سيدي.. كان تريستانو ينفخ صدره ثم يترك الزفير المنهك والطويل يخرج، كأنه يتحرر من الأهواء الشريرة المخلوقة من الهواء. استردّ الكلام مجدداً: كنت أشير إلى إحساس حادّ وهمجيّ بالحنين، بل إنه دمار مريع ومجرّد، فالحنين يفرضه الشيء الذي نحنّ إليه. أما أنا فأرى تلك الصور التي تنسكب فجأة أمام عيني كشريط سينمائي، ليست إلا ذكريات تافهة وأشياء لا قيمة لها دُفنت في الذاكرة ولا أشعر تجاهها بأيّ حنين.. الحنين الذي أشعر به لا ينتمي إليّ ولا يتعلق بتلك الصور. لا أعرف كيف أشرح هذا.. ليست الصور ما يحرّضني على الحنين، لكنه حتمي لرؤية الصور. ليس حنيناً حقيقياً بالمحصّلة، إنه عبارة عن قلق غامض يأخذ شكل الخوف أحياناً، لكنه مخلوط بالعبثية. وداخل هذه العبثية ثمّة رهبة حادة تنقضّ على جسدي كأنه ينتج أزمة ذا- تهدف إلى تمزيقه إرباً.. هل رأيت في السينما كيف يهدمون الأبنية القديمة في المدن

الكبرى ليشيّدون أخرى جديدة مكانها؟ فتقع الأبنية على نفسها، أو تهوي على نفسها، وتنفجر. هذا ما أحسّ به.. أشعر بالانفجار من الداخل، وينتابني برد قارس يجمّد يديّ وقدميّ. فيندلع الصداع حينها كالوحوش الضارية... ذهب الطبيب ليجلس بالقرب من زهر الخزامى. قطف منها غصناً مزهراً ليشتمّه ويدغدغ به جبهته. غمغم الطبيب: Angor mortis[1] كان القدماء يدعونه هكذا. لقد وصفت لي أعراض الصداع العنقودي بأشدّ أشكاله تعقيداً يا سيدي. ويسمّى أيضاً بالأورة الصداعية. والصداع لا يأتي بمفرده، إنه كسلطانة تستبق مجيئها بوفد مؤلّف من مخلوقات غريبة ومتنوعة، كجوقة من الطبول والأبواق والراقصين والبهلوانيين والمطربين. لو كان عليَّ أن أحصي كل أنواع الأورة التي تسبق الصداع لبقيت هنا حتى المساء ولأجبرتك على دعوتي إلى العشاء في منزلك.. فأجاب تريستانو: أعتقد أنهم حضّروا طبقاً من الأرنب بالروزمارين، فزوجة المزارع أغستينو طباخة ماهرة. وقد تحضّر فراولين حلوى الشوكولا.. خلع الطبيب قميصه الطبي الذي كان يرتديه حتى عندما يزور المرضى في بيوتهم وعلّقه على المشجب. اختتم كلامه: أحبّ الشوكولا لكنّي سأمنعك عنها إذ لا يُنصح بها لمرضى الصداع. أمّا الأرنب يناسب كلينا، فهو لحم أبيض.

جئت إلى هنا لتجمع حياة. أتعرف ماذا جمعت؟.. كلمات، بل هواء. فالكلمات أصوات تُخلق من هواء. إنّك الآن تجمع الهواء يا صديقي.

كان طبق الأرنب بالروزمارين لذيذاً في الحقيقة، وحلوى الشوكولا أيضاً، ولكن عندنا يحضّرونها بطريقة مختلفة، هذه يوجد

(1) الجملة واردة باللغة اللاتينية وتعني: عذاب الموت. (المترجم)

فيها لوز مطحون على ما أعتقد. خذ منها قطعة سيد تريستانو، لن تصيبك بأذى.. فهم تريستانو مقصد الطبيب، فجنّبه مزيداً من الفضول والاستغراب، وقال: لقد دعوت فراولين لتشاركنا وجبة العشاء، لكنها رفضت بحجة أنها متعبة. إنها ليست متعبة ولا أريد أن تظنّ أنها تتجنب لقاءك أيها الطبيب. بل على العكس، إنها تقدّرك جداً وكانت هي من نصحني بالقدوم إليك. سأصدقك القول. السبب الحقيقي خشيتها من التحدث بالألمانية. ومن الطبيعي أن تتحدثا باللغة الأم كما لا يؤسفني أن أتحدث بها معكما. أترى أيها الطبيب، إني أفهم فراولين جيداً. لقد جاءت إلى هنا عندما كانت طفلة، ولم تخسر لغتها الأم، لكنها أجُبرت على التحدث بالإيطالية طيلة حياتها. لا أعرف ما الآلية التي تمنعها من الحديث بالألمانية مع شخص ألماني، كأنها تخجل في امتحان للوثب فوق الحواجز. إنها تتحدث الألمانية معي فقط. تخيّلْ أنها تتحدث بالألمانية مع زائر مزعج يطرق بابنا بزيارة غير متوقعة، وتتظاهر بعدم فهم الإيطالية.. قال الطبيب: سأسمح لك بقطعة ثانية من الحلوى يا سيدي. إني واثق من أنك ستنام جيداً هذه الليلة، فلن يكون عندك ضيوف مزعجون. لكني وعدتك بشرح الأعراض التي تسبق وصول السلطانة، كما أسمّيها، وهي قائمة طويلة جداً وسأحاول أن أختصر Aura، أي الهواء باللاتينية. يعود هذا المصطلح الغريب إلى طبيب في سالف الزمان كان أستاذاً لغالين وبيلوب إلخ.. كان هو أول من لاحظ ظاهرة فيزيائية تشير عادة إلى بدء النوبة كإحساس ينشأ في إحدى اليدين أو القدمين ثم يتقدم صوب الرأس. وصف له أحد المرضى شعوره بوجود بخار بارد، ففكر أنّ الأزمة مرتبطة ببخار يصعد من أحد أعضاء الجسد بالشرايين لأنهم كانوا يعتقدون في تلك الحقبة

أنّ الأوعية الدموية تحتوي على هواء. وأسماه بالبخار المجرّد بناء على ما سبق. سيد تريستانو، أتعلم أنك نطقت بالحقيقة عبر المجاز عندما قلت أنّ في تلك الليلة من آب سقطت نجمة على رأسك؟ إني متأكد من أنّ تلك النجمة لم تسقط على رأسك فحسب، بل دخلت فيه أيضاً. بـدأت تـرى ومضـات متقطعة ومبهرة تحـت جفنيك، تتداخل ببعضها وتأخذ شكل الفسيفساء بتحوّل مستمر بلا شك، كأنها مشكاة، أليس كذلك؟... ظلّ تريستانو صامتاً، يوافق بحركة لا إرادية.. فتابع الطبيب: إنها الشـكل الأكثر شـيوعاً للأورة. تأثيرات ضوئية غريبة كأنها ألعاب نارية تنفجر في عينيك، وتأخذ أطراف الأشياء من حولك شكلاً مشعاً لتبدو محاطة بخيط إلكتروني تتدفق فيه الكهرباء. لكن أعراض الأورة لا حصـر لهـا، قبـل وصـول السـلطانة أو خـلال زيارتها. فتنشـأ أوهام حسـية من مختلف الأنواع، واهتياج هسـتيري بانفعالات حادة للغاية تفوق الوصف والشرح. وقد يشعر البعض بالنشوة فيتلذذون بإغرائها ويخضعون. ومن يدري، ربما عانى المتأملون كثيراً من أشكال الصداع المريعة. فهناك تشـويش الرؤية، كالشـعور بتشـوه الأشـكال أو تعظّم الأشياء: قد ترى أحداً يصغر أو يصبح ضخماً بلحظة أمام عينيك كما تشـاهد في بعض الأفلام الوثائقية عن النباتات. لعلّك رأيت بعضها، حيث توضَع الكاميرات لأسابيع أمام زهرة في برعمها، فتراها تتفتح حتى التويج في ثوان قليلة لأنهم يزيدون من سـرعة الصورة. لويس كارول كان يعانـي مـن صـداع رهيـب ووصـف تلك التأثيرات بشـكل جيد في رائعته آليس في بلاد العجائب. وكان عالم رياضيات ضليع بالمنطق، واسـتطاع أن يقص الأعراض بواقعية قد تبدو لنا سـحريةً. وهنالك الهلوسـات الصوتية أيضاً، وهي عبارة عن ضجيج أو طنين،

أزيـز أو تمتمـة متواصلـة بصـوت عريـض أو متذبذب كهزيم الرعد أو خريـر الينبـوع. وقـد يكـون مجرّد أصوات كثيـرة متصاعدة. الأعراض الأكثـر تـردداً هـي الأصـوات المألوفـة التـي تشـكّل أو شـكّلت جزءاً مـن حياتنـا، ولعلّنـا سـمعناها بمـا فيـه الكفايـة فتخزّنـت في صندوق ذكرياتنـا. وقـد تكـون أصـوات مجهولـة ومصطنعة عـلاوة على ذلك، يبتكرهـا الدمـاغ وينتجهـا بنفسـه.. سـكت الطبيـب لوهلة، ثم تابع: لا أريـد أن أقلقـك يـا سـيدي. إنهـا حـالات نادرة ومعقـدة غالباً ما تظهر فـي الصـداع المقتـرن بـداء الصرع. وهي أشـكال ثاقبـة جداً تقود إلى تشنجات. ويوجد حلّ علمي للأزمة، فبعض العلماء يرون أنّ الصداع ليس بسبب التشنجات بل العكس صحيح تماماً.. وصل تريستانو إلى قطعة الحلوى الثالثة، وقال: وأنا أظن أنّ الشوكولا ليست مسئولة عن المشـكلة. ولكـن مـا رأيـك بالأعراض التـي وصفتها لك في الظهيرة، كالذكريـات المتدفقـة التـي تندلـق من لا شـيء، وأحداث عشـتها تمرّ أمـام ناظـريّ كمـا الأفـلام؟.. فأجـاب الطبيب: أعتقـد أنه خلل طارئ فـي وظائـف الدمـاغ، وينتمي لظاهرة الديجافو بشـكل مخبري ومعقد طبعاً. ويعيش البشر جميعهم هذه الظاهرة، بمستويات متباينة، ولو حتى للحظة واحدة. وهو الانطباع بأننا نواجه حالة كنا قد عشـناها سـابقاً. وقد تطورت كثير من النظريات سواءً في الحقل الفيزيولوجي أو في الحقل السيكولوجي لتفسير هذه الظاهرة. ويُجمع العلماء عموماً على أنها تنشأ من التأخر بين إدراك الحدث ونقل هذا الإدراك إلى الدماغ، ويقدّر التأخير بمليون جزء من الثانية، لكنها تمرّ على الدماغ البشري كأنها سنوات، فيكون الدماغ قد عاش هذا الأمر في السابق بالنسبة له. واضح؟ أمّا الجواب عن سبب الخلل فيبقى غامضاً. لقد عرّف أحد

الفيزيولوجيين الكبار الذي جافو على أنه تغيير في تصنيف الوقت ضمن الجهاز العصبي. تعريف رائع حقاً!.. فرويد من جانبه تناول الدي جافو في إحدى الدراسات التي تدعى بدراسة التشويش، وغالباً ما يرافق التشويش هذه الظاهرة في الواقع، ومن الصعب التأكد إن كان يتبعها أم يسبقها. الدي جافو عند فرويد ظهور مجدد لذكريات ملغيّة، تثير تلك الأحاسيس لأنها تشعر بأنها ألغيت بمؤامرة ودون دافع.. فسأل تريستانو: وأيّ النظريات تتبنى حضرتك؟.. كان الطبيب يأخذ قطعة من الحلوى تاركاً القطعة الأخيرة لمريضه. دخلت أنفاس الريف المنعشة من النوافذ المفتوحة، وحضّر الطبيب نفسه للانصراف قائلاً: منذ أن بدأت هذا النوع المهجّن من التحاليل التي تقوم بها معي مازلت مقتنعاً أنّ النظريتين صالحتان لا تستبعد الواحدة الأخرى. بل ربما تتحدان باكتمال عند مريض مثلك.. ليلة سعيدة سيد تريستانو. حاول أن تستريح.

لعلّي قد حلمت بتريستانو. ربما رأيت ذكرى أحد الأحلام، أو حلم لإحدى الذكريات، أو الاثنان معاً. يا لهذه المعضلة أيها الكاتب! هل جلبت معك مسجّل الصوت؟ اعذرني على السؤال، لكن الشكّ راودني بأنك تحمل مسجّلاً في جيبك. هل سألتك عنه من قبل؟ أطفئه إن كان معك، لا أريد لصوتي أن يظلّ حياً. ثم إنّ الأحلام لا تُسجّل، عليك أن تسمعها أولاً ثم تكتبها. اصغ جيداً ثم اكتب. مبدأ الأدب أن تروي حلم شخص آخر. وأنا أثق من مهارتك بالقصّ والإضافات التي يجود بها خيالك، وسأسمح لك بوضع وجهة نظرك أيضاً. كلا.. سأضع وجهة نظري، أقصد رأي تريستانو لأنه صاحب الحالة. وأنا حلمت بها من وجهة نظري، فأرويها لك، ثم تبدع الرواية أنت لأنك

ملمّ بخدع الكتابة أفضل مني. قرأت كتاباً تعليمياً عن هذا الموضوع إحدى المرات. لطالما أعجبتُ بالكتب التعليمية، وقرأت منها الكثير. وقد تستغرب هذا من بطل مهم مثلي. قرأتُ "دليل الراقص المتكامل" و"كيف نتعلم فن الشطرنج" و"كيف نرسم بالألوان المائية" و"كيف نتوجّه بالنجوم" و"كيف نتسلق شواهق الألب".. وكيف نخطئ باتخاذ كل المواقف في حياتنا دون أن ننتبه لذلك.. إنّ وجهة النظر تعود إلى الحلم منطقياً. فليس بوسع أحد أن يتحكم بالأحلام، لا أنا ولا تريستانو، كالقلب يجبرك على أن تعيش وفقاً لأهوائه. أراد هذا الحلم إذن أن أرى تريستانو مستلقٍ بين الأحراش، وحوله أغصان يابسة كثيفة ومتشابكة تمتد حتى الغابة وسفوح الجبل. ويرتعش إصبعه على زناد الرشاش، وعينه تحدّد باب الكوخ بهدف الرماية، لأنه يعرف أنّ الألمان والخائن الذي يرافقهم سيخرجون من ذاك الباب.. دووم.. دووم.. كان قلبه يخفق ويسمع صدى دقّاته على طول منحدرات الوادي.. اعذرني على كلمة «منحدرات» لأنها تأتي من المصطلحات الألبية. إنها سيئة أليس كذلك؟ أتمنى أنك لم تستخدمها من قبل.. يكاد تريستانو يسمع خفقات قلبه ترجع إليه بحجم أضخم.. وفي منطق الأحلام الغريب والحقيقي على حدّ سواء، يرى تريستانو أنّ الخائن الذي سيصوّب عليه النار يطلّ برأسه من الباب ويومئ له بالدخول مبتسماً. يخضع تريستانو لمنطق الأحلام العنيد، فينهض ويذهب إليه.. وعندما كان يعبر تلك المسافة يلاحظ أنّ الخائن ليس بحارس مدرسة البلدة، بل له وجه امرأة يعرفها مع أنها ترتدي بزّة ألمانية وتنساب خصلة من شعرها على ناصيتها كرجل متغطرس.. إنها مارلين، حقاً إنها مارلين.. يرغب تريستانو بالصراخ، ويُخرج الخنجر من غمده الجلدي ويُشهره عالياً،

ويلوّح بذراعه في الفراغ ليضرب ذلك الخائن المتخفي. وأخذت الحركة تتباطأ، كما في الأفلام، لأنّ شريط الحلم حينها كان يمرّ بحركة بطيئة جداً بمعدّل سنتمتراً في الثانية بمسار لطيف كرقصة يد مقبوضة ستطعن الخائن في صدره ليسقط مضرّجاً بدمائه. لكنّ الخنجر وقع من يد تريستانو، في منطق الأحلام، وهبطت بخفّة على أكتاف روزاموندا العارية فيطوّقها بذراعه الأخرى. الحلم هكذا أيها الكاتب يحملك حيثما يريد. يبدآن بالرقص فوق أرضية الجبال الوعرة التي تحوّلت إلى صالون يفوح منه عبق الموسيقى، ومن نوافذ تلك الصالة تظهر حديقة على الطراز الإيطالي. ويرقص معانقاً روزاموندا التي ترتدي بزّة عسكرية ألمانية وتدعك نهديها بصدره وحلمتاها منتصبتان. مرّرت ذراعيها على رقبته وداعبتها. همست بينما أدخلت لسانها في أذنه: حبيبي كلارك، لم أعشق أحداً سواك، ولم يكن اصطحاب أحد الذكور لمؤانستي عندما كنت تنزل إلى الوديان في المهمات سوى علاقة عابرة. فدعك تريستانو وركيها بذراعيه وأخذ ينزل بيده حتى بطنها، ثم تابع حتى وصل إلى فرجها. فشعر في تلك اللحظة بعضو قاس تحت بنطال الجندي. إنه قضيب ذكري منتصب أرادت أن يداعبه بينما تهمس في أذنيه بصوت ساخن ومثير: أرسلني القائد يا تريستانو. ليس بميت بل كانت دعابة. تعال لنلعب معاً يا عزيزي، فهو ملّ من الوضع، وما زال يحبني. إنّه بحاجة إلى رجل قوي مثلك يتسلّى معه. كن حبيبي أرجوك، وسيكون للقائد حصته أيضاً. لقد تركته في الكوخ الجبلي، يبدو ميتاً لكنه ليس كذلك. بقي هناك ليصبح عجوزاً وهو بانتظارنا. تعال معنا، أعدك أن نكون ثلاثياً رائعاً.. هبط الغروب فجأة مع أنّ الوقت كان فجراً. وابتسم تريستانو للمرأة التي خرجت

من البيت، وتحوّل الخنجر بين يديه إلى زهرة بهيّة. تومئ المرأة إليه بإشارة كي يدخل إلى البيت: هيا هيا.. تريستانو يعبر الباب فيدخل ثانية في الحلم الذي كان يحلم به منذ هنيهة. وصار الكوخ صالة يرقص فيها بعض الأشخاص. وخلف الصالة حديقة جميلة، على الطراز التوسكاني تحديداً، بأشجار صنوبر وسياج نباتي. ويحمل المدعوون كؤوساً بأيديهم، وثمّة خدم بياقة بيضاء. رافقه الضابط الألماني إلى الحديقة كأنه حارس شخصي. لكنه لم يعد مارلين، بل غدا رجلاً عجوزاً تظهر بقع الشيخوخة على جلده، ووجهه كورق البردة. همس باسم ألماني لم ينجح تريستانو بتحديده. كان يضع نظّارة فردية في عينه اليسرى وله ساق مستعارة. فتذكّر تريستانو في الحلم أنّ الكثيرين من الطبقة الأرستقراطية الألمانية خسروا إحدى ساقيهم في الحرب العالمية الأولى. ثم انشغل بتخيّل أحدهم يرقص فوق الطاولة. حتى الأحلام ليست بريئة، إذ تخيّل ذاك المشهد لأنه قرأ كتباً وشاهد أفلاماً أغنته بمخيّلة مفتوحة. ثم تفاجأ، دون اندهاش كما يحدث في الأحلام عادة، من قول ذاك البارون الألماني: (I`m american)، وتمتم بجمل أخرى ضاعت ضمن ضجيج الضيوف والصيحات: (فريدووم، فريدووم..). ثم سمعه يقول بصوت معدني متجمد يقرقع مثل ساقه المركّبة: سأقدّمك للحضور.. يا لهذا الكابوس! لكنه ليس بكابوس حقيقي لأنني الآن مستيقظ ولم أكن أروي لك حلماً بل حدثاً واقعياً. بين الحين والآخر أنصاع لرؤية شيء ما وأسترسل فيه كأنني أعيشه حقاً، وأغوص في تفاصيله. وقد يكون بسبب هذا الخليط من الأدوية، فينفجر رأسي بغتة.. تريستانو يا عزيزي.. التفت تريستانو ورأى مارلين مستلقية على العشب في آخر الحديقة وترتدي تنورة طفلة ترفعها لتبيّن

بطنها وفخذيها المفتوحين. ويظهر خلفها ميناء كُتب عليه "فريدووم هاربور". وكان بقربها شخص أصلع وجهه مستدير، ويبتسم قائلاً: هلّا انضممت إلينا؟ إننا نقوم بالثورة.. لكن تريستانو لم يكن يفهم فصاح: ماذا تقول؟.. سأله الرجل المكتنز إن كان يجيد إطلاق النار، وأضاف: نحن بحاجة للشجعان أمثالك، لا تعر اهتماماً لحفلة هؤلاء الحمقى الذين نقوم باستخدامهم، كلّما كانوا حمقى كانوا مفيدين أكثر. روزاموندا اشرحي الأمر لصديقك. أيّ مناضل هذا؟ هيا يا تريستانو، تعال معنا، إنه وقت القتل، أتفهم؟ هلاّ شرحت له ما وقت القتل يا مارلين.. استطال صوته كأنه الصدى: القتل.. القتل.. ربت أحدهم على كتفه. كان رجلاً طويلاً وبشعاً له أنفه كبير وابتسامة عوجاء. همس بأنفه في أذن تريستانو: أودّ أن أقدّم لك القائد الأعلى للجمهورية المغمورة. له صلات وثيقة مع كل مخابرات العالم. ينبغي أن تعامله باحترام، وإلّا دفعك إلى مصير أعدائه الذين تفوق أعدادهم حبّات العنب في مزرعتك.. أمسكه البارون وصاحب الأنف العظيم من ذراعيه، وأجبراه على التقدّم صوب منقلة الشواء الضخمة التي تشتعل في آخر الحديقة. وكان حول المنقلة نفر من العجائز يحملون صحوناً بأيديهم ويلتهمون منها النقانق. كان ذاك الركن يشهد جواً مختلفاً، تبدو حفلة قروية كأنها مهرجان النقانق. وخرجت أنغام من المذياع العتيق بدت له مألوفة لكنه لم يعرفها على الفور.. صرخ الرجل ذو الأنف الكبير: سادتي المستنسخين يا رؤساء الجمهورية القادمة، لي الشرف أن أقدّم لكم بطلاً قومياً عظيماً كافح الغزاة المعتدين. احتفلوا به قبل أن يركلكم على قفاكم!.. فأخذ الرجال يقفزون رامين النقانق في الهواء بسعادة بالغة، ويغنّون مع موسيقى النشيد الوطني الإيطالي التي تخرج

من المذياع. وفي تلك اللحظة، من بين الأغصان، يخرج رجل يشبه الكلب المترهّل مرتدياً واقي الرصاص. اقترب من تريستانو متبختراً، وقال له: يا صاح، لا تعر اهتماماً للثوريين البروليتاريين ولا لهؤلاء العجزة. أنصت إليّ جيداً. سأكون أنا القائد القادم، وسأنشئ جمهورية الهشتك بشتك. أتريد أن تكون مقدّماً لأحد البرامج الترفيهية؟.. لحس الرجل الكلب شفتيه ومطّ لسانه كالحرباء حتى لعق وجهه بأكمله، وقال بنبرة حازمة لا تعيد ما تقول: سأكون ملك المستقبل يا عزيزي المناضل. لقد عشت الأمرّين في الجبال وناضلت لأجلي، حتى لو لم تكن تعلم ذلك. لذا اسمع جيداً. سأقول شيئاً واحداً لأنني ذاهب لتناول السمك التي حضّرته طبّاختي الخاصة: لقد جلب المسيح كثيراً من مفاهيم الشرق إلى بلادنا، وكان بدوياً يمتطي الحمار ليثير عواطفنا، نحن أصحاب حضارة السيارات...

قال فيروتشو: ستكتشف الجنون إذا نظرت مليّاً في الثنايا الخفية لأي مجتمع، ولا ينظر فيها إلا شجاع مجنون.. اعذرني، لم أكن أقصد التوقف عن قصّ الحلم، لكنه انتهى بالنسبة لي أيضاً. انقطع حين رأيت فلاناً يمتطي حماراً على ما يبدو، وبعدها غفوت فعلاً. لعلّ مفعول الأدوية انتهى فانتهت معه الهلوسة. قالت لي فراولين إنّ الإعصار لم يصل هذه الليلة كما كان متوقعاً. لقد عاشت حياتها كلها وهي تمدّني بالأخبار بصيغة النفي.. لم يأتنا الإعصار يا فتى، والطقس حارّ أكثر من البارحة، لكن غرفتك هي الأكثر انتعاشاً من باقي غرف المنزل، فكن سعيداً. لقد أخذت الممرضة إجازة يومين لتبقى بجوار ابنها المصاب بالجدري، فكنت أنا من راقبك طوال الليلة الفائتة، وقد نمتَ قرير العين كملاك وديع ولم تهمس حتى بنواح واحد. لن أحقنك اليوم

بالمورفين مع أنّ وقته قد حان. أخشى أن تؤذيك الحقنة. لا أقول إنك لا تشعر بأي ألم، لكن حياتك كانت أفضل من حياتي مع أنّي لم أشتكِ يوماً. هل سمعتني يوماً أشتكي؟

أتدري في سبيل ماذا ناضل تريستانو أيها الكاتب؟ ابذل جهداً لتخمّن، فأنا واثق من أنك تعرف لكنك لا تفكّر بالأمر.. فطن تريستانو للأمر ذات يوم فجأة. انتابه بريق انتباه أو شيء كهذا.. ماذا تطلقون عليه في الأدب؟.. عندما تكون الحقيقة راسخة مثل الإسمنت، فإذ بثقب يُفتح فيها للحظات بمعونة إلهية، تلقي نظرة إلى الداخل فتفهم كل شيء.. الأمر كمعجزة صغيرة. هل فهمت قصدي؟ لا بأس.. أدرك تريستانو في سبيل ماذا كان يحارب ويناضل ويقاتل ويخاطر بحياته، وفهم سبب آلامه وعذاباته وأفكاره المثالية.. في سبيل الهشتك بشتك.. إني أعطيه هذا الاسم لأنّ تريستانو أسماه به. لا يشمل عالم الهشتك بشتك على الأداة فحسب، أي العلبة التي يتقوقع فيها، وهي المادة الملموسة والبرهان العلمي والحسي على وجوده. بل كان إلهاً جديداً مستعلياً وغامضاً رغم ذلك. ديانته بلا أخلاق، وشكله بلا مضمون جوهري، ويستمدّ قوته الهائلة من فراغه وقلبه الأجوف. يتغلب على جميع الأديان، المسيحية واليهودية والبوذية والإسلامية والشنتوية والطاوية. بوسعه أن يتكون من كل تلك الأديان دون أن يكون أي واحد منها. وهكذا تبرز طبيعته التجميعية والحتمية، لكن روحه ليست صافية لكونه مرئياً ووهمياً بآن واحد. فهو قادر على عرض ذاته والآخرين، الرغبات والأحلام، كل شيء ولاشيء. لقد صُنع من الإلكترون والطاقة، لكنه دون ذرّات. والغريب أنه غير قابل للإدراك بمتابعة برامجه، فهي لا تساعد إلا على تكوين فرضية

عنه.. لقد أدرك تريستانو كينونة الهشتك بشتك حين خرج إلى شرفة هذه الغرفة يشاهد نجوم ليلة صيفية صافية، ويفكر بنظريات الطبيب زيغلر. وبينما كان يبحث عن أجرام الدبّ الأكبر، انتبه لوجود نجمة متحركة تبالغ في لمعانها. لم تكن نجمة، فليس للنجوم أن تتحرك، ولم يكن اشتداد بريقها إلا لكونها اصطناعية. أحسّ بالنجمة تنساب في فلك السماء وتوشوش أذنيه بكلمة سرّها: هششش تك، بششش تك.. هششش تك بششش تك.. وهمست: لا تفكروا أيها الناس! تذكّروا أن تكفّوا عن التفكير! فالتفكير مرهق ولا طائل من ورائه. أليس التفكير من دعاكم لاختراع مادة السيليكون ومعسكرات التجميع وغاز السيكلون السامّ والقنبلة الذرية، أرأيتم ثمار التفكير؟! أنتم متعبون من التفكير. فكّروا بي فقط، وأنا سأفكّر عنكم، وهكذا تنجون من عواقب تفكيركم.. أخفض تريستانو عينيه نحو السهل وأضواء المنازل البعيدة كبقعة ضوء صفراء تحت الليل. بدت الأضواء مقرونة بصوت النجمة الاصطناعية. فأصدرت الأضواء سكوناً مدوّياً كما الأرض تغلي بانتظار الزلزال، كخوار رتيب ومتلعثم بصفات توراتية تكثر في سفر الرؤيا. كان صمتها يقول: إننا نؤمن بأفكارك أيها الهشتك بشتك، شكراً جزيلاً لك.. فتغلغلت فيه الوساوس وتراكمت عليه الكوابيس. وأخذ صوت النجمة يزوره أثناء نومه العميق أيضاً، ويكلّمه كصفير ناي. وبدت همساته كنصائح خوري عبر نافذة الاعتراف: تذكّرْ أن لا تفكّر! دعني أفكّر عنك يا تريستانو. لقد قاتلت في سبيل الحرية وها نحن ننعم بها. الحرية الحقيقية أن نُعمي بصائرنا ويفكّر أحدهم نيابة عنّا.

أتعرف قصيدة تقول: أيا ظلالاً تمتدّ على البحر، حبيبتي تعلن استسلامها ببسمة ولمسة، كأنها ظلٌّ لليلٍ حالكٍ، ثم تسكن الموج

والمدى وأماكن أليفة أخرى.. أتعرفها؟.. لا تقل لي إنك تعرفها، لأنها ليست موجودة أصلاً ولم يكتبها أحد. بل تبدو لي سخيفة ومن الأفضل أن تنتهي عند هذا الحدّ.

قال فيلسوف ضاحك: البكاء لا يجدر ولا يليق بنا، فلنضحك إذن!.. وكان الفيلسوف يضحك على نفسه عندما قال ذلك... كان مزاجه السيئ يكبت آلامه في صدره لدرجة أنها تخثرت، ولم يبق أمامه إلا الصرخات الفجة في رحابة الفراغ لا تجتاز حدود مزرعته. أيصرخ في وضح الظهيرة الساخنة بأسنان تصطكّ كعواء رهيب يُخرس حتى الجنادب؟ اسمع بأية طريقة شخّص الآبديريون[1] حالته.. ألا تعرف من هم؟ كان يطلق هذا الاسم على الأطباء المتغطرسين.. التشخيص بختم اتحاد الصحة المحلي، ومرفق بسيرة مرضية ووصفات طبية. أصغ جيداً إلى ما يقوله التشخيص: رجل هزيل بلحية طويلة، وعيناه مضطربتان بفعل مزاجه الذي يكدّر لون بشرته أيضاً. ونادراً ما يصدر الشتائم بصوت منخفض، كما لا يجيب على أسئلة الآخرين مهما كان نوعها كأنه في مكان آخر. يقضي الجلسة الطبية بصمت طويل ويخرج دون أن يدير وجهه. وإذا استدار صدفة يقوم بحركة غريبة ومغيظة لا تمتّ للتحية بصلة. يرفض تناول أدوية أعادت البسمة إلى ملايين البشر، لأنّه يعوّل على الشفاء دون دفع تكاليف العلاج رغم كونه ميسور الحال. في أول امتحان نفسي صرّح أنّهما من داع للتحدث

(1) «الآبديريون» نسبة إلى مدينة أبديرة اليونانية التي كانت مضرباً للمثل بغباوة أهلها عند الإغريق القدامى، ويستخدمه الكاتب للسخرية من الأطباء المتحذلقين بناء على ذلك. ولا يخفى أنّ المدينة شهدت ولادة أعظم الفلاسفة مثل ديمقريطيس. ولعلّ تابوكي يشير إليه بالتنويه إلى الفيلسوف الضاحك، إذ كانت له رسائل مهمة عن قيمة الضحك ومنافعه. (المترجم)

عن طفولته لأنه كان طفلاً سعيداً على حدّ زعمه. يذكر جدّه المعادي للكنيسة والمولع بالأفلاك، ويذكر انتقاله إلى سن المراهقة في عمر الخامسة عشر عندما عاشر بنت الفلّاح إذ كانت جميلة وناضجة. يقول إنّ المشكلة لا تكمن بالجبل بل بالبحر، ويصرّ أن يسمح له الأطباء بتناول عصارة الخشخاش. وعندما لم نسمح له بها أجاب بفخر على رفضنا المنطقي وهو يقهقه: «هذا تشخيص فلسفي قادم من آبديرة تحوّل إلى وصفة طبية رسمية يا عزيزي داماجيتوس».. واليوم أشعر أنك داماجيتوس الخاص بي، وأرغب أن أناديك بهذا الاسم أيها الكاتب. لعلّك قرأت تلك الرسائل المتعلقة بالجنون، إذ كان تريستانو يجد نفسه في ضيق بين الفرح والغضب، تماماً كما كتب داماجيتوس، بين قطبين متباعدين تقدّمهما لنا الحياة بعض اللحظات، كأننا نقول بين الجدار والمخرج حيث لا توجد نقطة ارتكاز بين القطبين تكمن فيه الفضيلة التي كانت تنقصه ولم يجدها. كان يتساءل عن العلاج الذي أوصى به القدماء بخصوص الأهواء الشريرة، وكان العلاج إما بالبكاء أو الضحك، ولم ينفعه أيٌّ من الحلّين. إذ أنّآلامه كانت خرساء ومزمنة، تنحصر في صدره ولا يجد صوتها أو كلماتها كحيوان يصرخ في نفق مظلم. ولم يكن داخل النفق، بل كان هو النفق بعينه.. وذات يوم رأى ضفدعاً بين الكروم.. وأصبح هذا الضفدع كلباً.. هل رويت لك هذه القصة؟.. اكتبها ثانية إن أردت..تحوّل الضفدع الأصفر إلى كلب بنفس اللون مدفون في التراب حتى عنقه فاغراً فمه من شدّة الاختناق. أخذ الضفدع يتحدث بصوت كلب، ثم أظهر أسنانه المنخورة وقال: أنت أنا وأنا أنت، أتفهمني؟.. فأدرك تريستانو أنّه ليس إلا أمام مرآة، وبدأ المكان يتموج. كان يتبول عند الكرمة، فوصل البول إلى قدميه. وشعر

بثمالة من يدرك الأمور على حين غرّة فينتابه الدوار. لقد كان يؤمن باللاشيء متشبثاً بإيمانه. فرأى الحرية التي ناضل في سبيلها مدفونة في التراب حتى عنقها.. شكراً يا تريستانو، كنت كلب حراسة رائع، فانبح الآن كما تشاء وإن خجلت فبوسعك أن تعضّ الرياح.. نظر تريستانو إلى الضفدع في عينيه التي كُتب كل شيء فيهما. لقد وعى لكل شيء بعد أن سبق السيف العذل، وانفجرت القنابل ومات الأبرياء، ونجا المجرمون من العقاب، وعزفت جوقة المراسم في الساحات احتفاء بالثاني من حزيران[1]، وخفقت الراية المقدسة في الهواء. وكان أحد المسؤولين يؤدي تحية العلم مستعداً كما كان تريستانو مقابل الكرمة يتبول على قدميه.. أدى التحية العسكرية إلى ذاك الكائن المشكّل من كلب وضفدع، فأصدر الكائن صوتاً ثاقباً كغناء الحوريات. في أول أيام الحرّ الملتهب كان الصوت يأتي من الجبال، وكان منعشاً لأنه قادم من الشواهق الثلجية كنشيد خفيف الوقع يجتاز قشور الزمن، ويغنّي له: يسقط الزيتون، لا تسقط الأوراق، وجمالك لا يسقط أبداً، أنت كبحر يكبر بموجه، يكبر بفعل الريح وليس بفعل الماء. هيا غنِّ للنوم أيها الخائن. ترنّح تريستانو حول نفسه باحثاً عن طيف غرفته حتى ارتمى على السرير. قبض على أذنيه وحاول جاهداً أن ينام. بوسعك أن تتخيل كم عانى أيها الكاتب!

صرخ ذات يوم على حين غرّة: بانكيرفو! بانكيرفو!..جاءت فراولين إلى مكتبه لترى ما الذي حدث. كان يبدو غافياً على الكرسي أمام النافذة المفتوحة التي يدخل منها غصن من شجرة الكرز. كان

(1) الثاني من حزيران 1946 عيد الجمهورية الإيطالية والتحرر من الملكية والنظام الفاشي. (المترجم)

أيار يشرف على الرحيل، والكرز باهياً مزدهراً.قام من كرسيّه واثباً، وصوّب نظره إلى الريف صارخاً: بانكيرفو! بانكيرفو!.. تسمّرت فراولين من الدهشة بينما خرج إلى الشرفة المشمسة ونزل منها إلى الباحة كأنه يقع من عتبات صخرية. ثم بدأ يرقص حول شجرة الكرز ويعانق ساقها من حين لآخر، ويجذبها إليه حتى كاد يقتلعها كبربريّ يعيش في الغابة. صرخ: ما أجمل الكرز الأحمر في الربيع!.. لحقت به فراولين وهي تشاهد بهلع هذه الرقصة العبثية المترافقة بكلمات متقطعة وظنّت أنّ الجنّ يلبسه. كانت المسكينة متجمدة في مكانها، ولم تتحرك حتى عندما راح يركض في الحقل صارخاً باسم بانكيرفو. ثم استوعبت الأمر فجأة كما يحدث للمتنوّرين. أدركت أنّ كلّ شيء كانت له بداية في بانكيرفو قبل سنين عديدة، وأنّ اللغز الذي أردى بابنه قتيلاً يوجد في بانكيرفو، وعليه أن يبحث عن الحل هناك. هل كان لهذا المكان وجود حقاً؟.. القطار توقّف ثم انطلق ثانية لكنه لم يصعد به، بل بقي في محطة منسية من كاستيليا ينظر إلى تلال قرعاء غريبة الشكل، كأنها فيلة بيضاء.

كدت أغفو حين خطر سؤال في بالي: ما الذي يجعلك تتحمل مزاجي السيئ؟ إنك صبور لدرجة لا تطاق، بل أنت ماكر. نعم.. أرجو أن لا تعتبرها إساءة مني، فأنا بتّ نزقاً بسبب الغرغرينا التي ستبتلع خصيتيّ عمّا قريب. أعتذر إن سمحت لنفسي بالتحدث على هذا النحو الحميم، لكنني أروي عليك أشدّ الأمور حميميّة، وبتنا أصدقاء. ولاحظت أنك تأتيني راكضاً عندما أقرع الجرس في أي وقت، لعلّك تحبّ سماع الناس تنعتك بصفات قذرة. ألهذا الحدّ تعجبك حياة تريستانو؟

زعم الآبديريون أنّ تريستانو مصاب بالهذيان، وقد أكدتُّ لك أنه كان مجنوناً نوعاً ما، لأنه يرىٰ الأحداث قبل وقوعها على الأرجح.. ويخشى الناس شخصاً مجنوناُ كهذا، فيعيش نهاية شبيهة بنهاية المنذرين، أي في المصحّات النفسية، حيث يقضي المنذرون المسالمون بقيّة عمرهم. أما المنذرون الأشرار فلا يخشى منهم أحد، ويعيشون بسلام بين الناس.. أتعرف ما الذي حدث أيها الكاتب؟ سأقول لك ما الذي كان تريستانو يفكر فيه عندما اكتشف طبيعة الهشتك بشتك وحلّل شخصيته.. إنّ الهشتك بشتك في سعي حثيث ليمسح أيّ مظهر للتفكير من العقل البشري، سيّما إذا أثّر عليه سلبياً ولو بأدنى الدرجات. وبشكل تدريجي سيبدأ بإقصاء أية دلالة لها معنى وكل صورة تحمل فكرة من علبته الزجاجية حتى نكفّ عن عادة التفكير كليّاً. فالصورة تنتج فكرة مهما كانت متواضعة وسيئة ومقززة واعتيادية، والفكرة خطيرة. وهكذا سنرى الضوء كبضع خطوط إلكترونية مهتزة، تتساقط من حين لآخر كنقاط مثيرة حيث يذهب عقلنا لنتلذذ بالغرق في غمار ذلك الضوء. هل هذه نرفانا حديثة؟ بل قد يكون نهاية العالم التي انشغلت بها خرافات البوذية.. وهذا ما ينتظركم غداً أيها الأدباء، لأنّ الغد يوم جديد كما قالت روسيلا.. أتخيّلكم مجتمعين ذات مساء بكهوفكم المبسوطة بالموكيت، وأنتم مبهورون بالنار الإلكترونية تتناقشون بأمر تلك النهاية.. سأترك قلادة الحرب التافهة لتلك النار تضرمها.. هذا ما يصبو إليه إلهكم الجديد ولن يكون لكم إله آخر سواه.. ولكل شعب ناره التي يستحق مع أنّ النيران الكهربائية في بلاد أخرى لن تكون مختلفة جداً عن نار بلدك.. أقول بلدك لأنه لم يعد بلدي.. إنني بتّ أقرب إلى هناك من

هنا، قدماي ترتجفان وسط الهواء، وأنا بلا جنسية ولا أنتمي لأي بلد، فليس للموت نقطة حدودية تطلب مني جواز السفر. وليس بمقدور أحد أن يمسكني من قدميّ ويسحبني من شجرة البرتقال كما فعل تريستانو بحبيبته دافني.

أخبرتك أنّ تريستانو بدأ يستقبل الرسائل، أو قل إنها أصوات بالأحرى. وكان يراها مكتوبة، ويعرف مرسلها من خطّ يده على الفور. وكما لكل يد خطّها الخاص، كذلك الأصوات لكلّ منها خطّ مميز وطبيعة كتابية مستقلة، ونبرة تعبيرية قوامها اللون. أكّد له الطبيب زيغلر أنّ الأصوات قد تصبح ألواناًعند بعض من يعاني الأورة الصداعية يختلف بعضها عن بعض كما يختلف لون الحبر بكل تدرجات أطيافه من الأسود الداكن إلى الرمادي، ومن البرتقالي كغروب الصيف إلى الأحمر، ومن الأزرق السماوي إلى الأخضر بكل تدرجاته، الغامق والفاتح والنباتي. وكان اللون الأخضر الذي يجوب في جهازه السمعي يشكّل أزيزاً مستمراً زاحفاً كالثعبان، وينتقل بعدها إلى فمه كطعم مرّ كأنه يمضغ أوراق الهال. وكانت رسائل كثيرة تصله خلال اليوم، قرابة العشرين أو أكثر، وحتى خلال الليل عندما يغفو بعد محاولات حثيثة للنوم، وقد لا يحلم بشيء، بل ينام بصمت كأنه مذياع مطفئ لا يرده الأثير. وكان يتوهم أنه قطع الاتصال على مبدأ: حوّل! أغلق!، لكنه كان يحوّل دون أن يغلق.. بدأ هذا الأمر بصوت تشويش يشبه صوت الشواء الذي يصدر عند تغيير موجة الراديو. استيقظ حين وصول الرسالة، ونهض على السرير متسمّراً في عتمة الغرفة. يضرب ذاك الساعي غريب الأطوار على الجرس بإصرار، فيبدو التشويش في الظلام كمشواة مشتعلة وُضعت آذانه عليلها لتُشوى. لم تكن كل

الرسائل مكتوبة بالأسود أو الأخضر، فهناك الأزرق السماوي الذي يتعلق بالطفولة والذكريات الضائعة.. عزيزي نينو، لقد كتبتَ اسمك بالطبشور على جدران الإسطبل كلها، وقد فرحتُ بذلك لأنك تعلّمت الكتابة بمفردك ولم يعلّمك أحد عليها. لكنني في الصباح وجدت نفس الخطّ على الجدار الذي يسوّر المزرعة، وقد كتبتَ بكلمات شائنة لم أسمعك تقولها يوماً. فناديت الخادمة لتمسح الكلمات المسيئة واحتاجت سطلين من الجصّ كي تنجز ذلك. لا يجدر بك أن تكتب مثل تلك الكلمات يا عزيزي، لأنّ بعض الفلاحين يستاؤون منها. إنهم يذهبون يوم الأحد إلى الكنيسة للصلاة وقد يعاقبهم الخوري إذا قالوا كلمات كهذه، فكيف إذا رأوها مكتوبة أمامهم؟ سيشعرون بالغضب لأنهم متدينون ويؤمنون بالله، وعلينا أن ندعهم يؤمنون بما يشاؤون. بوسعك أن تناقش هذه الكلمات مع جدك الذي يحبّك كثيراً، وإلّا فلن يأخذك إلى البلدة في احتفال القديس جرجس مثل السنة الماضية. أفهمت يا نينو؟.. كان لصوت جدّه خطّ باللون الأزرق. جدّه الذي احتفظ بالقميص الأحمر طيلة حياته في الخزانة، لأنه كان من أتباع غاريبالدي. وثمّة خنجر فوق القميص كان بوسع نينو أن يراه في ظهيرة السبت عندما يدخل إلى غرفة جده. ورغم لون القميص الأحمر كان صوت جدّه أزرق، وقد رآه تريستانو جيداً في الغرفة المظلمة بعدما استيقظ واعتلى السرير مرتبكاً. وقال متحدثاً إلى الظلام: لماذا أيقظتني يا جدّي بعد أن استطعت أن أغفو؟ قلّما نمت قرير العين هذه الأيام. لم أعد أذكر ما قلته، وقد فاتت عليه سنوات بعيدة. لقد مضى وقت طويل، وبتّ عجوزاً مثلك الآن. أرجوك، ارقد بسلام، ودعني أنم بسلام أيضاً. ما الذي خطر في رأسك لتبعث لي هذه

الرسالة في مثل هذا الوقت؟! لقد بذلت جهداً جباراً كي أنام، ولم يعد حولي أحد. ذلك الطفل الودود الرقيق الذي أحببته كابني جاء حاملاً معه الموت. أتفهّم عتابك لي على خطأ ارتكبته عندما كنت صغيراً. لكني أراك تقول إنني أخطأت عندما أصبحت كبيراً أيضاً. ألهذا تكتب إليَّ الآن يا جدّي؟

وصلت إليه رسالة يصعب تمييز لونها، وربما كانت بلا لون: حبيبي كلارك، من الآن فصاعداً سأسمّيك هكذا. هنا لا يعرف أحد اسمك، وكنت اصطنعت اسمين أو ثلاثة لكن القائد فقط يعرف اسمك الحقيقي. سأسمّيك كلارك لأنّ خصلة شعرك على جبهتك وابتسامتك الهزلية تذكّرني بممثل من بلدي يعجبني كثيراً، لكنك تعجبني أكثر، كما يعجبني أن تشدني بذراعيك القويتين ليلاً. لكن هذه الليلة لن نستطيع أن نكون معاً يا حبيبي. أعرف أنك ستنزل إلى الوادي من الجهة الشرقية مع السريّة التي كلّفوك بقيادتها، وأنا سأنزل مع السرية الأخرى من المنحدر الغربي. لقد سمح لي القائد بالدخول في العمليات أخيراً، وقد أنزلوني بمظلّة على هذه الجبال للمشاركة في العمليات، وسيبقى لوحده لكنه لا يخشى شيئاً فالجنود المتطوعون سيحرسون المكان جيداً. أعدك بأنني سأعود إليك في ليلة الغد. أظن أنك ستطيعني بعد العملية، هذا من واجبك، ستكفّ عن تسميتي بروزاموندا لأنه لا يعجبني. اسمي مارلين، وأنت ما اسمك يا كلارك، هلاّ قلت لي اسمك؟.. رسالة أخرى خضراء اللون: كم أنت وغد يا تريستانو. واقتراحك غير ملائم، لقد ارتبطت بعلاقة غريبة ومحدودة خارج إطار حياتي، فقلبي ما زال متيّماً بحبك. لم أخنك في الجبال، بل كنت أنت من ادّعى ذلك. وأنت تعلم لماذا، لأنك

تـدري كيـف كنـت تحتـاج إلى أن تفكّر بأنّ أحداً ما يخونك.. رسـالة أخرى ذات لون كريم: الرفيق العزيز، لا أكتب إليك كقائد، بل كرفيق. اسمح لي أن أناديك هكذا حتى لو لم تكن تشاركني المعنى العميق لهذه الكلمة. أعجبت برأيك السياسي وبصدقك في طرحه، ولا أريدك أن تظنّ أنني أراك مثقفاً برجوازياً كما لا أريدك أن تراني موالياً عنيداً للبروليتارية. لم أشعر بالإساءة من كلماتك، ويسعدني أن تعرف هذا لأنني أحترم أفكارك كما أتمنى أن تحترم أفكاري. أقدّر شجاعتك ورجولتك ونضالك، وسنناقش آراءنا بهدوء بعد أن ينتهي كل شيء. أما الآن فعلينا أن ننشغل بمقارعة العدو، لا أن يحارب بعضنا بعضاً.. وثمّة رسالة أخرى لونها أصفر: تريستانو، بدأت أعي أنّ لا أحد يودّ أن يتحمّل المسؤولية على عاتقه في بلادك، كأن كلّ الذي كان، هذا الذي جئنا نحرركم منه، ليس ذنب أحد. وهذا ما يسمح للبعض أن يتقرّب من البلاد الشيوعية، يبدو أنّكم مولعون بالشمولية أياً كانت. سأبقى في إسبانيا الآن، ليس لديّ مزاج للعودة إلى ليالي المرح. إسبانيا بلد مختلف، وشبح إرنستو العجوز ما زال يتجول في كل مكان، إنه تعويذتي. لماذا بقيت في تلك الغرفة المنسية؟ لماذا لم تأت معي؟ هل لأنك كنت خائفاً من فهم الأشياء حقاً؟.. رسالة أخرى باللون الأسود المقدس: تريستانو، كنت مطمأنّة على الطفل بين يديك لكنك لم تتمكن من حمايته. لست قادراً أن تقطع رأس ميدوزا الذي خدّره.. ما زلت خسيساً كما في السابق.

برسيوس استطاع أن يقطع رأس ميدوزا، التي كانت تحوّل الأشخاص إلى جماد بنظرة واحدة منها، لأنه واجهها بالمرآة. وعندما استلّ سيفه بين يديه أمسك بشعرها المصنوع من الثعابين وقطع رأسها.

واستطاع أن يحرّر أندروميدا التي كانت سجينة عند الوحش البحري ثـم تزوجهـا. وكانـت النجمـة الأساسـية في ملاحة برسـيوس تسـمّى المرفق، وهو اسـم عربي. لطالما أبحر العرب، وكم من بحر شـقّوا وبالنجـوم اهتـدوا! نجمـة المرفـق هـي الأكثر إشـعاعاً، حتى أنها تُرى بالعين المجردة. إنها أكثر إشـعاعاً من الشـمس بآلاف المرات، لكنها ليست معروفة مثل نجمة الغول أي رأس الشيطان. كانت الأخيرة أكثر خدمة للبحّارة، ومن يدري لماذا.. أمّا نجوم الثريا فهي بعيدة وتنحدر من كوكبة بيرسوس. ويقول علماء الفلك إنها بقايا مجرّة مازالت على قيد الحياة منذ زمن ضارب في القدم. تصبح هذه المجرّة قابلة للرؤية حوالي العاشر من آب، وبوسعك أن تراها بسهولة. كنت أراها دوماً، وكان ذلك أشبه بموعد في كل عاشر من آب.لم أعد قادراً على عدّ الأيام في هذا السرير. هل مضى العاشر من آب؟

وصلـت إلـى هـذه الجزيـرة آخر الظهيرة. ومن اليخت كنت أرى المرفـأ يقتـرب والمدينـة البيضاء المنتشـرة حول الحصن أيضاً. فقلت في نفسي: عسى أن ألقاك هنا. وكررت ما قلته في نفسي بينما كنت أتنزه في الدروب المدرّجة التي تقود حتى البرج، وحقيبتي تخفّ يوماً بعـد يـوم. علـى كل درجـة كنـت أقول: ربما يكون هنا. وفي السـاحة تحت الحصن ثمّة رصيف يشـرف على الميناء، وعليه مطعم شـعبي بطاولات حديدية عتيقة، ومرج صغير فيه شـجر زيتون وزهر جوريّ كامـل الحمـرة. وبعـض العجائـز يجلسـون على المصطبـة المنخفضة ويتهامسـون. ويلعـب بعـض الأطفـال حـول التمثـال المرمري لقبطان كان بطـلاً خـلال الحـروب البلقانيـة فـي العشـرينيات. جلسـت علـى طاولة صغيرة، ووضعت حقيبتي على الأرض، وطلبت طبقاً من تراث

الجزيـرة، لحـم الأرنـب بنكهـة القرفة مع البصل. تصل الدفعة الأولى من السيّاح في حزيران. كان الليل يهبط صافياً ليحوّل ظلام السـماء إلى بنفسجيّ متأجج شيئاً فشيئاً. وفي البحر تلمع أضواء قرى باروس وتبدو على مرمى حجر. البارحة تعرفت على طبيب في باروس. لم أسـأله مـن أيـن يجـيء لكنـه ربمـا كان من كريـت، جزيرتي. إنه رجل مكتنـز وقصيـر ويعلـو البثـور أنفه، اقترب مني وسـألني: إلام تنظرين؟ فأجبتـه: إلـى المـدى. قـال: إنّ الخـطّ الوحيـد الذي يفـرم المدى هو قوس القزح، وهو خدعة انعكاس بصري ومجرّد وهم.. فتحدثنا عن الأوهام، وجاءت سيرتك رغماً عني. ولم أنطق باسمك لكنه قال لي إنه تعرّف عليك يوماً. لقد عالج شرايينك عندما جرحت معصميك. لم تخبرني بتلك الحادثة، مما حرّك مشـاعري، وفكّرت أنني سـأجد قليلاً من نظراتك في عينيه لأنه تعرّف على دمك. فتبعته إلى الفندق الذي ينزل فيه، ويدعى ثالاسا. كان الفندق قريباً من الشاطئ، وينزل فيـه الغربـاء مـن الطبقـة المتواضعـة. أولئك الذيـن يقضون العطلة في اليونـان مـع أنهـم يكرهـون أهلها، لكنه كان مختلفاً عنهم بلطفه. خلع ملابسـه بحيـاء، فرأيـت عضـوه الصغيـر كبعـض التماثيـل فـي متحف أثينا. ولم يكن بحاجة للحبّ أكثر من حاجته لشـخص يواسـيه. كان رجلاً حزيناً، وافتعلت كلمات تساعده على النهوض شفقة مني عليه. بحثت عنك يا حبيبي، وعن كلّ ذرة منك هامت في الكون. لملمت منهـا مـا اسـتطعت، علـى الأرض، فـي الهواء، فـي البحر، في نظرات البشـر وحركاتهم. بحثت عنك في جبال كوروس البعيدة في إحدى الجـزر، وتذكـرت أنـك أخبرتنـي ذات يوم عن مرورك بسـفوحها ولم يكن صعودها سهلاً. تركني الباص في سيبورس تلك القرية المنسية،

وكان عليّ أن أمشي ثلاثة أميال. وعلى مهل صعدت المنعطف الذي ينحدر إلى وادي الصنوبر والزيتون فيما بعد. وكان هناك راع عجوز في الطريق. قلت له دون مقدّمات: كوروس. فلمع بريق عينيه كأنه فهم من أكون وعمّن أبحث. ودون أن يقول شيئاً، مدّ يده مشيراً إلى الدرب. فالتقطت حركة يده ووميض عينيه ووضعتهما في جيبي. انظر، هاهي. بوسعي أن أضعهما على طاولة المطعم حيث أتناول العشاء. إنهما كحجرتين كريمتين من لوحة شظاياك التي أجمعها بصبر جميل كي أبنيك ثانية، إضافة إلى رائحة ذاك الطبيب الذي قضيت معه الليلة الفائتة، وقوس القزح في المدى وهذا البحر الأزرق الذي يسبّب الأحزان. وعندي نافذة حديدية وجدتها في سانتوريني، تلتوي الكرمة عليها، وتشرف على رحابة البحر وضيق الساحة. تذكرت قصائد عن البحر والساحات: بحر يبرق كالقرميد رأيته معك من عند المقبرة، وساحة يعيشها أشخاص رأوا وجهك. فبحثت عنك في لمعان ذاك البحر لأنك رأيته، وفي عيون الصيدلاني والعجوز الذي يبيع القهوة الباردة في تلك الساحة. وضعت كل هذه الأشياء في جيبي، وما جيبي سوى عينيّ. وقف الخوري على أدراج الكنيسة يتصبب عرقاً في ثيابه السوداء، ليغنّي ترتيلة بيزنطية تحمل لونك. تضارب الموج في الأفق فتطاير الزبد الأبيض في لون البحر الأزرق، وربما تكون أنت ذاك الزبد. ليتني أستطيع وضع الزبد في جيبي. ثمة سائحة أجنبية متقدمة في السن تتصل من هاتف عمومي أمام البحر، والسماعة مفتوحة للهواء والمارّة، تقول Here the weather is wonderful. I will remain very well[1].. وهذه إحدى جملك، وأعرفها حتى لو قيلت في لغة

(1) الجملة واردة بالانكليزية وتعني: الشتاء رائع هنا، سأبقى لمدة أطول. المترجم.

أخرى. لكن السائحة تترجم ما قلته إلى الإنكليزية على عجل. كنت تقول: لقد مضى الربيع لأجلنا يا حبيبتي ووصل الخريف، واصفرّت أوراق الشجر. بل إنه شتاء متسرّع على حساب صيف قصير منتعش بنسمات المساء على ميناء ناكسوس. ذات مرة قال لي عجوز حكيم في بلد بعيد: لا نحتاج إلا للنوافذ، فاتساع الحقيقة عصيّ على الفهم، ولكي نفهمه ينبغي أن نغلق عليها في مربّع فالمساحة تنظّم الفوضى، ولهذا اخترع البشر النوافذ بالشكل المربّع الذي يفرض وجود الزوايا القائمة. هل تخضع حياتنا للزوايا القائمة أيضاً؟ لا شكّ أنّها الرحلة الصعبة المفروضة على الجميع وتتخللها انحناءات حتى نصل إلى غايتنا. ولكن إذا فكّرتْ بالأمر امرأة مثلي من شرفة مفتوحة تطلّ على بحر إيجه، في مساء كهذا، تستوعب أنّ كل ما نفكر به ونعيشه وما عشناه وما نتخيله ونرغب به لا يمكن أن يخضع للمساحة، وأنّ شكل النوافذ يعكس خشية البشر من النظر الدائري، حيث لا معنى لشيء ولا مخرج، كما عندما نظر تاليتس إلى النجوم التي لا تظهر في النافذة. لقد جمعت كل شيء عنك: الفتات والشظايا والغبار والفرضيات وآثار الأقدام ونبرات الناس، وذرة رمل وصدَفة، وماضيك الذي تخيلتُه، ومستقبلنا المفترض، وما رغبت به منك، وما وعدتني به، وأحلام طفولتي، والعشق الذي شعرت به تجاه والدي، وبعض الخواطر الغبية من أيام مراهقتي، وزهرة خشخاش على جانب طريق غابر. وضعت كل ذاك في جيبي. أتعرف؟.. زهرة الخشخاش تشبه تلك التي كنت أذهب لجمعها من التلال في أيار بسيارة فولكس فاغن، بينما تظلّ في المنزل منشغلاً بمشاريعك وبتأويل الوصفات الدقيقة التي تركتها لك أمك في كتيّب أسود مكتوبة بالفرنسية. كنت أجمع لك الخشخاش

الذي لم تتمكن من فهمه.. لا أعرف إن كنت أنت من وضع نطافه فيّ أم العكس. بقي كل واحد منا على حاله دون أبّوة أو أمومة. وبقيت أنا بلا أحد يجمع أحزاني من بعدي. طفت في كل هذه الجزر باحثة عنك، وهذه هي الأخيرة، فهي مثلي إذ لا أحد من بعدي. من سيبحث عنك إلاّي؟.. إنها خيانة أن تقطع بي الحبل ولا تعلمني أين يرقد جسدك. أسلمت نفسك لمينوس الذي ظللت تهزأ به حتى ابتلعك. فاستطعت أن أفكّ رموز النفوس في كل المقابر بحثاً عن اسمك العزيز كي أبكي عليك عنده. لقد خنتني مرتين، والخيانة الثانية عندما أخفيت جسدك عني. وها أنذا أجلس على طاولة عند رصيف المرفأ وأنظر إلى البحر دونِ جدوى وآكل أرنباً بنكهة القرفة. بقربي عجوز يوناني مريض يغنّي أغنية قديمة بغرض التسول. وثمة قطط وأطفال وبريطانيان من عمري يتحدثان عن فرجينيا وولف ومنارة في البعيد لا ينظران إليها. إنني أخرجتك من متاهة، فأدخلتني بها دون وميض أمل لي بالخروج، فحياتي مرّت ولا حبل يقودني إلى نفسي، أو إلى الكون على الأقل. يداعب الهواء شعري، وأنا أترنح ليلاً لأنني أضعت الحبل الذي أعطيتك إياه يا ثيسيوس..

هل أعجبتك الرسالة؟؟.. فكّرت بها طوال الليل، كتبتها ثانية في بالي كلمة كلمة، لكني واثق من أنك ستجعلها أفضل عندما تكتبها أنت. اجعلها قوية ما استطعت.. لستُ من المعجبين كثيراً بقوة الكلمة، لكن هذا وقتها، فما قلته لك رسالة وصلت من العدم. من كتبها لتريستانو؟ ومن أي أعماق سحيقة قفزت كسمكة ثمينة تصعد الوقت بجهد من أعماقها حتى تظهر يوماً لتفتح فمها كزهرة ماء؟.. هل ما تزال حية تلك المرأة التي تبحث عن قبره؟ ولماذا تبحث عن قبره؟

لتحفر قبرها بمحاذاة قبره؟.. لم يعد لدافني وجود، لكن صوتها ما زال حياً. إنها ليست سوى بحثها المتواصل عنه. هل بوسعنا البقاء رغماً عنا؟ وبأي منطق نفكّر في ذلك؟.. كان تريستانو جامداً ومبهراً بضوء الظهيرة بعينين جاحظتين خلال آب لهّاب، وبكلمات دون رسالة بين يديه، مثل اكتوبلازم مبتكر من الحسرة والندم ومتكثفاً في الجو عبْر غاز يخرج من الأنابيب. وعارياً ركض بعيداً عن بيته خشية من تلك الأصوات المفترسة، وهو يتذكر أرواحاً لا تقوى على نسيانه.. رقّاص الساعة رخو كإبرة بوصلة توقفت عن العمل لتدلّ على نقطة ليست أساسية لكنه فهمها على أنها الأرض، بل ما تحتها، بل الأعماق، بل الأبد بل أبعد بكثير.. وفجأة تحوّل شعاع الضوء إلى ظلمات دامسة عمياء ابتلعت كل شيء.. رفع ذراعيه مترنحاً وشعر بنفسه يعانق العدم حتى الردى. هل مات؟!.. ومن يدري يا ترى.. لا أحد أيها الكاتب.. لا يعرف الحقيقة أحد غيري، وقد أجهلها أنا أيضاً.. فلا يموت ظاهر المرء فحسب، إنما الباطن على وجه الخصوص.

سأكون صريحاً. قبل أن تأتي فكّرت أن أروي عليك كل ما يتعلق بمافري إيليا. لم أكن تحدثت بشأنها لأي أحد، حتى أنت لم تذكرها في كتابك لحسن الحظ. فكّرت أن أعيد التوازن، يا لي من غبيّ! متى كانت الحياة متوازنة لتفقد توازنها فأفكّر في إعادته إليها؟! وأعدلت عن فكرتي لأنّ مافري إيليا تنتمي لعالم تريستانو فقط، فلِمَ أعطيك إياها على طبق من فضة وأنت لا تستحقها؟! ثق أنني سأخبرك بالأحداث الجوهرية فحسب، هذا إذا اتفقنا على تسميتها بأحداث.. اختفت مافري (أو توفيت، كما يقول أولئك البسطاء الذين يستخدمون عبارات مثل «بالصبر والسلوان»). أحد الأدباء قال جملة عظيمة: (نحن

لا نموت بل نبقى جامدين في قلوب من يحبّنا كثيراً فقط).. نظلّ كالفقاعات وسط الهواء ولا يرانا أحد سواهم، أحبابنا ينهضون على أصابع أقدامهم ويثبون بمرونة ليمسكوا بخصورنا الشفافة ثم يسحبوننا إليهم كي لا نبقى هائمين في الأجواء، ويخفوننا تحت إبطهم لنصبح على مسافة قريبة منهم كأنّ شيئاً لم يكن، وكأنّهم يتعرضون لمواقف خيالية من الحياة اليومية لأجل الصالح العام، لكي لا يبدون بمظهر غير لائق أمام بائع الخردة وبائع الدخان الذي يعرفك منذ زمن وقد يقول: ما أغرب مشيته وزوجته تحت إبطه تطير في الهواء.. هكذا حدث مع تريستانو في يوم أحد. لقد قررت أن تحدث الأشياء المهمة مع تريستانو في أيام الأحد. وإن كتبت هذا في كتابك يصبح حقيقياً، لأن الأشياء تصبح حقيقية ما إن تكتب.. وكنا في شهر آب، لأنني قررت أن تحدث الأشياء المهمة في حياة تريستانو يوم أحد من شهر آب. وإن كتبت هذا يصبح حقيقياً أيضاً. سترى... كان يدور في مدينة بلاكا الخالية ويفكر بنظراتها الحزينة وإحدى سهراتها الحزينة في مالافراسكا، حيث كانت دافني تلفظ أنفاسها أمام النوافذ المفتوحة على السهل، وحولها قناديل الغاز، وتقول بلهجتها الكريتية المميزة: أمنيتي يا تريستانو أن لا تدفنني في هذا السهل حيث تقبع المقبرة تحت الضباب، خذني إلى بيتي واحرقني، وانثر رمادي بين جزر بحر إيجه بطريقة بسيطة تستغني عن الرومنسية، اركب زورق أحد الصيادين وأبحرْ بعيداً عن الساحل وتنقّلْ من جزيرة لأخرى، لا تبتعد كثيراً، ارمني عند سيفنوس وثاكسوسوباروس، وزّع الرماد قليلاً هنا وقليلاً هناك، وأرجو أن تكون عارياً مستلقياً وسط الزورق، كرحلاتنا البحرية حيث كنت تصر على اصطياد الجمبوزنين دون أن تصيد منها شيئاً،

ثم نفعل الحب ويهتزّ الزورق حتى يكاد أن يغرق بنا.. وقف تريستانو عند بائع الخردة في بلاكا، وكانت دافني مستلقية داخل القبة البيزنطية قريباً منه، والجوّ حار.. فكّر أن البائع سيجد طريقة ليعثر عليها لأنه كان يعرفها بصغرها، لكنه لم يتذكرها. فذهب إلى كشك المرطبات وسأل البائع إن كان يتذكر امرأة في صغرها تشتري الحلوى منه وتدعى دافني، ونعشها في قبة الساحة القريبة، وحبّذا أن يعيدها إليه.. سمعت أحدهم يقول إنّ أشياء كهذه قابلة للحدوث، وها أنا أجرّب.. لكن الرجل لم يتذكرها قائلا: يؤسفني، ثمة كثير من الفتيات يحملن اسم دافني في اليونان.. فتوجه إلى بائعة البنفسج المقعدة وسألها فتذكرتها على الفور وقالت: طبعاً طبعاً، تلك الفتاة لها عينان كبيرتان كحبتيّ زيتون أسود، لقد مرّ زمن طويل لكنني أذكرها جيداً، لم يبددها الموت، إنها هنا بالقرب منك على ارتفاع غصن شجرة البرتقال التي خلفك، يكفي أن تشدّها من خصرها وتسحبها إليك.. السحر غريب أيها الكاتب، لأنّه مثل كن فيكون.. استدار تريستانو فرأى مافري إيليا تتشقلب على شجرة البرتقال وقال لها: يا للغباء، أظنني فقدت بصري وأنا في أرذل العمر. كنت هنا ورائي ولم أتنبه لوجودك. حمداً لله أنّ بائعة البنفسج كانت موجودة فأفهمتني أنك جامدة فقط. شكراً سيدتي، قال للبائعة. أنزل دافني من الشجرة وأخذا يمشيان في بلاكا، بعكس ما اعتقد أنه يوم شتوي حين قالت له دافني: ادخل إلى بيتي، إنهم يطلقون النار والوضع متأزم، فأنت قتلت ضابطاً ألمانياً.

كان فيروتشو يقول دائماً إنّ الأجهزة المتخلفة تحصل على حيوية أكبر من تلك المتطورة. لا بد أن تكون نظرية أحد ما توفيّ شاباً، لأنّ الأشخاص الذين يفكرون بهذه الطريقة يموتون في ريعان شبابهم

كـي تحصـل النظريـة علـى الأهميـة.. لـديّ قصة خارقة سـأرويها لك لاحقاً، فالساعة متأخرة وأنا بحاجة للنوم لأني تعبت كثيراً. سأرويها باختصار وعليك أن تنقّحها فهي ليست عظيمة جداً.. أمّا الآن دعني أنام فمزاجي تعكّر. تعال إليّ فجراً أرجوك، ستجدني مستيقظاً. لقد داهمني الوقت ولي رغبة في الموت قبل أن ينتهي شـهر آب. أشـعر بأيلول يدنو من الباب.

اقتربنا من النهاية. لقد عزمت هذه الليلة على الدخول في الدائرة التي حدّدتُ محيطها منذ وقت قصير، كما يفعل الفيل. ومن المضحك أن أدور ماشـياً بسـاق واحدة، أليس كذلك؟ حاولْ أن تتخيل عجوزاً عارياً في أرذل العمر يستلقي على سريره، ساقه مبتورة ويقفز في مكان فارغ ملتفّاً حول نفسه.. لو تخيّلت المشهد لرغبت أن تكون مشجعاً: هيّـا، ادخـل، خـذ قـرارك بقـوة وادخل!..فكّرت حتى النهاية أن أخفي عنك شـيئاً، وظننت أنه لن يقدّم أو يؤخر ولن يلمّع صورة تريسـتانو كثيراً. بل يبدو لي أنني شوّهت بطل روايتك بما فيه الكفاية، وقد لا تعبّر كلماتي عمّا اقترفته بحقّه. إنّ الكاتب، إذ يبتكر شخصية ما، يحاول أن يملئ ذاتها بالطهارة. لا، ليس هذا ما أقصد.. إنّه يبتكر شـخصية مـا ويعمـل علـى إحاطتهـا بالقيـم، مع أنّه يجبرهـا على خوض تجربة إنسـانية على الورق، وحياة الإنسـان - أو الحيوان الظالـم - اجتُزأت من ضلع المأسـاة كما تعلم، لكنّ المأسـاة لا تبعث رائحتها الكريهة على الورق! وقد تأخذ المأساة شكلاً حيوياً إذا روى التجربة صاحبُها الـذي خاضهـا، سـيّما إذا رواهـا وهـو مـا يـزال يتنفس بقربك حتى لو كان يحتضر. أفهمت قصدي الآن؟.. على أي حال، فكّرت أنّ حياتي سـتصبح من ورق بفضلك، وسـتجعلها أكثر تجريداً بقلمك لتنتشـلها

من براثن المأساة. ولعلّ التمييز بين الظلم والعدل يصبح مستحيلاً، كما بين القتل والاغتيال.. كنت تعرف من مقابلة تريستانو القديمة أنّه مسالم قبل أن يمحو بصماته. وكان بالأخص ضد عقوبة الموت الغبية والبيروقراطية والمرخّصة من قبل الدولة، ويراها ميْتة بصكّ رسمي تثير السخرية!.. لا شكّ أنّه كان تحت مفعول المبادئ التي لا قيمة لها إن لم يكن العالم مثالياً. وستقودك هذه المبادئ إلى تداعياتها المتطرفة حتى تصل بك إلى تقدير ذاك الجنرال التشيلي الذي أعدم الآلاف في الملاعب. هيا قم وعانقه واشرح له فكرة احترام الآخر، فربما تصبحان صديقين. ليس العالم كما تخيّله تولستوي مع الأسف، أي أن تُرضخ المجرم بقوة المحبّة والتسامح. ما أروع هذه الطوباوية!.. هتلر أخذ على عاتقه أن يجعل أوروبا نازيةً لأكثر من ألف عام. كيف كنّا سنتركه يطبّق أفكاره المجنونة باسم المحبّة والإخاء! انظرْ كيف تستنكر مبادئنا الجريمة، لكن الإطاحة بالطاغية لا يعارض مبادئنا. سأدع لك التمتع بحلّ هذه الأحجية التي لم تعد تخصّني.. سأختصر كلماتي ولن أخوض في التفاصيل، فهي ليست مهمّة في هذه القصة. يكفيك أخذ العلم بأنّ تريستانو لم يكن وحيداً، والسيارة كان يقودها تاديو.. افتحْ قوساً لإضافة تفصيل سريع: تريستانو لم يعد شاباً حينها، بل كان عجوزاً وبحاجة لصحبة أحد ما، كما أنّ تاديو كان متقدماً في السنّ لكنه الرجل المناسب لاصطحاب تريستانو.. أغلقْ القوس.. انظرْ.. سأغيّر الفكرة.. أفضّل أن أروي عليك التفاصيل فقط، سأتجاهل جوهر القصة لأنك ستفهمه بمفردك آجلاً: أي كيف وصل تريستانو إلى رأس الهرم، وكيف وجد المكان الصحيح، ومن ساعده في البحث إلخ.. كان تاديو يقود السيارة وتريستانو يدمدم ألحان أغنية إسبانية تتكلم

عـن خرافـة غجريـة تقـول إنّ البدر يسـرق الأطفـال. كان الطفل الذي سرقه القمر ما يزال طفلاً في عينيه.. (ألا أيها القمر الزكيّ أنرْ دربنا، فضوءك الأبيض كفنٌ لأمواتنا!..) وبالفعل كان الطريق أبيض كالغبار بين الأغصان الملتفّة ويجعله ضوء السيارة أكثر نصاعةً.. كان تريستانو قد كتب رسالة إلى روزاموندا ولم يرسلها بعد، بل يحملها دوماً في محفظته البالية.. وصلا إلى تخوم بلدة هجرها ساكنوها، وقد تحوّلت إلى قرية سياحية على الأرجح. دقّق تريستانو في الشرطي الذي دلّهما على الطريق، ولاحظ أنه مميز ونخبوي، ففهم أنّ الذي غزى المكان سيّاح ثقافيون، على حد تعبيره. وهم من فئة المتعلّمين بالمحصلة، يميلون للهدوء والتأمل، وليسوا كالشبان الذين يرتادون المراقص أو يحتفلون بموسيقى تزعج الجيران فيثملون ويثيرون المتاعب. وكانت واجهة المسكن أنيقةً، وهو بيت ريفي قديم رمّمه مهندس ذكيّ يسعى إلى الحفاظ على جمالية التراث. وكان المستأجر سيداً أنيقاً ولطيفاً واستقبلهما كأصدقاء.. لن أقول لك كيف نجحا في كسب مودته البالغة، فهذا ليس من التفاصيل.. جلسا على تلك الدواوين المريحة من مخمل كاستيليا التقليدي، وقدّم لهما ذلك السيد اللطيف كأس براندي من النوعية الفاخرة (كارلوس بريميرو معتّق) هذا التفصيل يستحق التنويه إليه لأنّ البراندي يساعد على الهضم، مما يقودني إلى ذكر تفصيل آخر مهمّ أيضاً: لقد تناولوا وجبة عشاء فاخرة كالجازباشو والسمك بالفرن وأطعمة أخرى لم يتذوق مثلها في حياته. وبعد العشاء كان الوقت متأخراً كالعادة، وهو تفصيل مهم أيضاً. أعجب تاديو بالبراندي فشرب كأسين وأكثر، وقال إنّه كان بحاجة لمثل تلك السهرة التي تشعل النار في العروق.. وفي هذا الحين نصل إلى الجوهر

الذي سأمنعه عنك كما وعدتك. سأضيف فقط أنّ تريستانو وضع على الطاولة صورة فتى يجلس على أريكة تحت الدالية في فصل الصيف، ونافورة الماء بقربه والكتاب في يده، وشعره غامق وناعم، وابتسامة وجهه السعيد تندفع نحو الحياة. وقال ممسكاً بتلك الصورة... لا أذكر ما قال بدقّة أيها الكاتب، أقسم لك.. سأنقل إليك زبدة كلامه، بما أنّ ذلك ليس تفصيلاً مهماً. قال إنه لطالما اعتبر الفتى كابنه وأحبّه جداً.. وحينها فهم السيد اللطيف الأمر وأصبح أقلّ لطفاً. وكما تعلم، ليس من الممكن أن يكتفي تريستانو بما قاله. لقد أراد أن يعرف ممّن يتلّقى السيد اللطيف الأوامر، ولحساب أي جهة مخابراتية يعمل؟ ترى لمخابراتنا الوطنية أم الأمريكية؟ وهل كان واحداً من أولئك الذين ضلّوا عن جادة الصواب أم ممن وجد الطريق الصحيح؟.. إنها تفاصيل سأدعك تفكّر بها لاحقاً، وإن كنت صبوراً فثمة ملف بآلاف الصفحات في أرشيف برلمان جمهوريتنا يوثّق سير البرلمانيين واحداً واحداً. اسم الملف «مجازر الهيئة البرلمانية»، وليس في أي بلد أوروبي شيئاً كهذا مما يزيدنا فخراً بوطننا. هذه الوثائق بمتناول المواطنين، اذهب والق نظرة عليها إن تسنّى لك الوقت. سأدعها لك بسرور، كما أدع لك القرن العشرين.. وفي النهاية، عندما تقطّعت أوصال الثعابين على رأس ميدوزا، خرجا في الليل. جلس تاديو على المقود، والبدر فوقهما مزدهراً بضيائه. مرّا أمام كنيسة، فرأى تريستانو صندوق بريد على جدار الجرس. وبدا له الصندوق الملائم لإرسال الرسالة إلى روزاموندا على العنوان: السيدة مارلين - روزاموندا/ بانكيرفو السماوية/هذا الكون.. وابتهج تريستانو لأنّ العنوان مستحيل على أي ساعي بريد في هذا العالم، فأرسلها وأزاح همّاً ثقيلاً عن

صدره: (نحن مسؤولون حتى في أحلامنا.. قمت بما طلبته مني في المنام.. وداعاً.. تريستانو).

نصب الرعاة نيرانهم في أعالي الجبال. وحلّ المساء بنور تركوازي يصبغ السهول. كان اللون التركوازي اسم السائل الأزرق الذي استخدمته النساء للغسيل في السابق، فاستغرب كيف خطرت في ذهنه كلمة مدفونة في السنين وعادت إلى الواجهة على حين غرّة.. وبينما كانا يجتازان الطريق صوب الجبل، اشتعل عنقود من الأضواء على السفح.. قال يانيس: لا، ليست قرية تيبيس، لقد مررنا بها منذ قليل. لا أعرف أي مدينة هذه. تنتظرنا الآن عدة انحناءات، فنحن نصعد جبال البارناسوس. هذه الجبال تبدو كتلّة منخفضة في القصص، لكنها شديدة الوعورة في الواقع. ربما نتوقف قليلاً لنأكل شيئاً ما.. وأخذ يانيس يتحدث في تلك اللحظة عن حرب القرم، ومن يدري لماذا. فتذكر تريستانو آنسته الودودة في الابتدائية ومعارك الجنرال ألفونسو لامارمورا، وعلى تلك الجبال تظهر وجوه بلا ملامح لآلهة تنير الليل. وسمع صوتاً يغنّي في أعماقه (كان لديّ حصان يعدّ خطوات القمر). لكن القمر بدا كقرص جامد فوق الطريق الخاوية، وثمّة كلب متأهب للعواء ومنتصب الرقبة كأنه ينتظر أحدهم على جانب المنحنى. وحينها وصله صوت من تلك الأصوات التي سكنت أعماقه، وربما كان صوت واحد له نبرات مختلفة، تارة لطيفاً يغنّي للأطفال وتارة يصدر العويل.. قال: اقرأ عليّ قصيدة الأصوات باليونانية إن كنت تعرفها يا آنتيوس.. فأجاب: لا أدعى آنتيوس، اسمي يانيس.. أجاب تريستانو: لا مشكلة، صوتك يشبه صوت صديقي الذي عرفته في بلاكا منذ سنين، يدعى آنتيوس وكنت أسمّيه ماريوس. مطلع

القصيدة: أحياناً يحدثوننا بالأحلام، أحياناً يعزفون في الصدر، أو في العقل.. شرعا بصعود سفح الجبل الذي يقع فوق زيتون دلفوي. رفع تريستانو عينيه وكانت السماء منخفضة. لامس صخرة مستديرة فتحسس الرطوبة جرّاء الضباب. وعاودا الصعود صوب معبد أبوللو. ثمة رجل بثياب رثة يجلس والبزق في حضنه تحت بوابة أثينا الذهبية اتقاء من المطر. وما إن رآه حتى عزف على آلته. أعطاه الإكرامية فغنّى أغنية قديمة شعبية وحزينة. سأله أن يلفظ الكلمات جيداً.. (لقد ثملت وتأخر الوقت. أدرك أنني أخطأت، فلنأخذ القطار الأخير بسرعة. جرس القطار يرنّ، إنه القطار الأخير).. طلب من يانيس أن ينتظره وراح يتسلق باتجاه المعبد بتوازن مرتبك على الصخور النديّة. وضع يده على عمود محطّم، وأومئ بحركة كان قد قرأ ذات مرة أنّ القدماء ينادون الوحي بهذه الطريقة. جلس تحت المطر، وأشعل سيجارة، وقال في نفسه: يا لي من غبي. قطعت كل هذي المسافة وأنا أعلم علم اليقين أنّ بيسيا[1] انقرضت وحتى أطلالها اندثرت. كان يكفيني خوض نوبة صداع واحدة كي تأتيني بيسيا إلى المنزل بذات نفسها.. نهض بعد أن تساقطت الأمطار بغزارة، وراح ينزل ببطء في الظلام، وأضواء الساحل الصفراء والمتسلسلة تومض في مهبّ المدى. كان من بين الأضواء ضوء غريب أبيض وسط أضواء صفراء كثيرة. أمعن النظر فيه، فأخذ الضوء يقترب منه بسرعة نيزكية حتى اصطدم به. وجد نفسه في ساحة خالية في طقس بارد أمام ضابط نازي مضرّج بدمائه على الأرض. وبينما كان ينظر إلى بندقيته بترقب، تفتح الفتاة

(1) بيسيا الراهبة التي تتنبأ بالمصير وتنادي الوحي باسم أبوللو في معبد دلفوي حسب الأسطورة الإغريقية القديمة. (المترجم)

الباب وتشير إليه بالدخول.. فغمغم في نفسه: ليس هذا اللغز الذي جئت أبحث عن تفسيره، هذا حدث واضح في الماضي.. فأجاب شجر السرو: أعرف. لقد جئت حتى هنا لتسمع ماضيك الحقيقي بصوتي، فأنت لست شجاعاً لفعل ذلك. وكلّفتني بأن أتنبأ بما قد حدث وانتهى وليس بوسع أحد أن يغيّره، وأنا أتنبأ بالمستقبل.. اسمع إذن.. ذات يوم، منذ سنوات بعيدة، ستجد نفسك في غابة بين الجبال في فجر شاحب وبارد، وستكون مختبئاً خلف صخرة والرشاش بيديك تنتظر العدو ليخرج من الكوخ.. ستفقد أعصابك وأنت ترتجف خوفاً وبردًا، لأن المهمة التي أوكلوك بها خطيرة، وجميع الرفاق علّقوا آمالهم عليك، وحتى المبادئ التي همت جهاداً في سبيلها ربطت مصيرها بنجاحك.. سيخرج الأعداء أخيراً، وسوف تقتلهم جميعاً بدقة عالية.. وحينها سيخيّم هدوء المقابر على تلك الجبال الجرداء، فتنهض منتصراً لأنك غدوت القائد الجديد للمجموعة والبطل الذي قتل سريّة نازية بأكملها انتقاماً للقائد السابق.. وفي تلك اللحظة سيحدث ما لم تكن تتوقعه حتى يسري وقع المفاجأة في عروقك ليصدّع صدغيك.. ستخرج امرأة من البيت شعرها أشعث وعيناها جاحظتان من العجب والرهبة. ستقف مصدومة وسط الباحة بين جثث الجنود، ثم تراك وتصرخ فيك: أيها الخائن! كنت جاسوساً، أيها الخائن!.. فترغب في الاقتراب منها لتشرح لها أنّ القائد كان عجوزاً لا نفع منه، ولم يكن من وسيلة للتخلص منه سوى ارتكاب مجزرة بحق الجميع.. لكنك لن تقول شيئاً كأن أفكارك تتجمد في الهواء قبل أن تجد كلماتها.. فتفطن أنّ المرأة يجب أن تكون في مهمة أوكلت إليها عند تخوم الوادي، فما الذي تفعله هناك؟.. سوف تحاول أن توجّه عليها هدّاف البندقية كي

تنتقم منها وتقتل الشاهد الوحيد على ما اقترفت يداك وتصبح البطل الطاهر.. لكنك لن تطلق النار، وهذا ما تعرفانه أنت وبيسيا.. أيها الحاجّ، أكنت تعرف أنها تقضي الليالي في ذلك الكوخ؟.. ألهذا السبب عملت جاسوساً؟ هل أردت حقاً أن تقضي على السريّة الألمانية؟ أم لأن ذاك الضابط كان يخالفك الرأي حول مستقبل البلاد فكان عدواً لك حتى لو حارب في صفك؟.. ثمّة ثلاث فرضيات في حياتك أيها الحاجّ، لكن بيسيا لا تعرفها لأنّ اختصاصها التنبؤ بالمجريات، لا بالنوايا التي حرّضتها. إنها تعرف ما سيحدث للبشر، لكنها لا تقدر أن تقرأ أفكارهم.

إنّ العالم مصنوع من الأحداث والأفعال والأشياء الملموسة المعرّضة للفناء أيها الكاتب. فالفعل يتحقق ويحدث في لحظته فقط، ثم يتلاشى، ويصبح في خبر كان. ووظيفة الكلمات أن تخلّده وتشهد على وقوعه. ليس صحيحاً أنّ الكلام يضيع في غياهب السنين، بل ستحظى الكلمات التي أقولها أنا وتكتبها أنت بالخلود وليس الحدث الذي قمت به في مكان أو زمان ما. كلماتي ستشهد على أني كنت موجوداً.. في البدء لم تكن الكلمة، بل في النهاية أيها الكاتب. ولكن من يشهد على الشاهد؟ تلك هي المسألة، لا أحد يشهد على الشاهد.. لا يهمنّي إن كنت حزيناً أو سعيداً أيها الكاتب. ما يواسيني أنني لم أكن رقماً يشبه بقية الأرقام ضمن رياضياتكم اللعينة والمليئة بالرموز. لا ضير إن غيّبتموني في العدّ، أردتموني زوجياً وكنت فردياً وجعلتكم تخطئون الحسبة. هذه قصيدة يوم الاثنين أو الثلاثاء وسوف أهديك إياها. أمّا قصيدة الأحد فنسيتها لأنها لم تعجبني.

ورغم امتداحي للكتابة، إلا أنني أظل متميزاً عنك يا صديقي.

فأنا صوت حيّ، أمّا الكتابة صمّاء بكماء. سيموت هذا الصوت الذي تسمعه بعد نقله إلى صفحاتك، فالكتابة تقيّده وتقتله، ليصبح كمعدن الكوارتز داخل إحدى الصخور. إنّ الكتابة صوت حجري تفتقد للروح التي كانت تهتزّ في الجوّ كالأمواج. ستبقى كتابتك ويختفي صوتي عمّا قريب. ولا ريب أنك تستطيع تسجيله بالآلة، لكنه سيبقى ميتاً ومتحجراً بلا إرادة تماماً كأنه مكتوب على الورق، لأنه لم يعد صوتاً حقيقياً بل نسخة عنه. وكلماتي حية لأنها أنفاسي، حتى لو كنت أقولها بنبرة متعبة وحبال صوتية هشة. فالصوت مصنوع من الأنفاس أيها الكاتب. اصغ إلى ما حولك.. أتسمع هذا الهدوء الثقيل في الخارج كيف يتخلله عويل الجنادب؟ أتسمع أنفاس الريف الحارّة في آب.. إنه يتنفس مثلي ومثلك. كل ما حولنا يتنفس: نحن الذين ندور على هذا الكوكب، وهذا الكوكب الذي يدور في الفضاء، والفضاء الذي ندور فيه، والكون الذي يدور فيه الفضاء، والأكوان التي يدور فيها الكون.. فلا تشغل البال بدوران الأرض أيها الكاتب، وفكّرْ برأسي الذي يدور من باب أولى. باغتني الصداع في هذه اللحظات الأخيرة. خذ بحسبانك أنّ الصداع أقسى من بني البشر.. ابحث في الصندوق عن مسكّن آلام من فضلك.. حتى الله، إن كان موجوداً، يتنفس.. ومن يدري ما حجم رئتيه، قد تضاهي بحجمها الأكوان، وصماماتها تفتح وتغلق مثل الفكيّن، لكنه يتنفس.. هذا اليوم الأخير بالنسبة لي، أو ما قبل الأخير. لست متأكداً بالضبط، لكني أشعر بدنوّ أجلي ونهاية صوتي وأنفاسي. هذا الصوت الذي روى عليك قصة حياة حسب طاقته سيفنى. كان بودّي أن أرويها بشكل أفضل، لكن الحياة لا تروى بل تعاش، وحين تعيشها تخسرها يوماً بعد يوم كأنك تموتها. وما

سـمعت حتـى الآن هـو زمـن عـادت إليـه الحياة لكنـه ليس زمن تلك الأنفـاس التـي كانـت حيـةً. فتلـك أنفـاس لا تتكرر، قـد يكون ممكناً أن تسـمع قصتها بالمذياع فقط. ثم إني لم أقصّ عليك شـيئاً جديداً بقصـة قديمـة مـن التاريـخ الـذي ترويـه النـاس بألف طريقـة وطريقة. أحدهم قال إنّ التاريخ يشبه البشر كثيراً في قلّة الخيارات المطروحة أمامه. ولهذا السـبب كُتب على أحد البشـر أن يضحّي بنفسـه ليبقى الخيـر. وفـي بدايـة تاريخنـا كانت التضحية مـن نصيب يهوذا، وينبغي علينا أن نقدّر تضحياته نظراً لما لحق به من مهانة بعدها. وليس من السـهل أن تأخـذ خيـاره حتـى لـو كان لصالـح الخير. إنه خيار عريق، بل إنه خيار الخيارات ويستحق إعادة النظر فيه طالما كنّا نعيد النظر بشخصيات كثيرة هذه الأيام.. ثمة كاتب أرجنتيني من القلائل الذين تفرّغـوا لمواجهـة اللغـز. قرأتـه مراراً وكان عظيمـاً برأيي. لكنه يخرج من معركته بقضية افتراضية، ربما لأنه عرف القليل من الحياة والكثير مـن آلياتهـا المعروفـة بالنمـاذج الحياتية.. ولكن إن حفرت تحت هذه النمـاذج لوجـدت القـرف علـى حقيقته.. قـد تتحدث عن بطل فتجده مقرفاً.. ماذا تفعل به؟ تمثالاً؟ ولِمَ لا؟ فهذه وظيفة الكتابة في النهاية، أن تخلّـد ذكـرى الأحـداث المهمـة كأي تمثـال مهيب. فتتّحد الذاكرة والنسيان معاً في مشهد نادر قبل أن يبتلع العنصر الثاني نظيره الأول يومـاً مـا.. وحبّـذا لـو يدوم النسـيان، لكنـه يولد من رحم الذاكرة التي يقـال إنهـا تعنـى بالواقـع، وأخشـى أن تتوهـم الكلمة أنهـا قادرة على الإمسـاك بالواقع. فهي قادرة على وصف آلياته فقط، وها نحن نعود إلى النماذج الحياتية.. إنّ الحياة سـوف تنتشـر كما يهرب النمل بكل الاتجاهـات مـن مملكتـه التـي تقبـع تحت صخرة ما. أظنك فهمت ما

أقصده بأننا نسميّها مملكة مع أنها مصنوعة من النمل الذي إذا هرب ماذا يبقى لديك؟.. حفرة!.. تابعِ الحفر إذن..

من يدري كم سيكرهك القرّاء لأنك رويت قصتي، وخاصة في هذا البلد الذي تعيش فيه، وهذه الألفية التي تدخل بها. ولعلّك تميّز بيـن نوعيـن مـن يهـوذا هـذه الأيام: أولئك الذين يخونون حباً بالخيانة وقلوبهم لا تعرف الرحمة، وأولئك الذين يخونون في صالح الإيمان وهو ما كان عليه يهوذا.. ولكن لا تهتم بهذا فأنت متفوق على الجميع إذ سمعت الصوت الحيّ لتريستانو ولن يسمعه أحد بعدك لأنه سيموت. تريستانو متعب حقاً الآن وأنفاسه تضيق. ولديه رغبة بنوم قرير وليس بغفوة جرّاء الحقنة. يرغب في نوم طويل يعادل مشقّة الحياة القصيرة. أما آن للجفن أن يغمض كي يمتدّ ظلّ الستائر حتى جوارحي؟ أنت لا تخبرني أبداً ما هو اليوم، وربما أنسى أن أسألك. لكني أشعر أنّ قيظ آب يبدأ بجمع أغراضه، وأحس بطعم أيلول الغريب.. أتعلم ما الذي يراه تريستانو تحت جفنيه؟ يرى ليلةً بعيدة من شهر آب، وكان طفلاً يجلس في حضن جدّه في فناء هذه المزرعة. كان الجدّ يعرف السماء جيداً ووعده أن يشـرحها له ذاك المســاء، كما كان حاد الطبع ســافر حتـى صقليـة ليحـارب البوربونييـن، ومـا زال يحتفظ بقميصه الأحمر في صندوق تفوح منه العطورات الزكية. وكان الجميع يخاطبه بصيغة رسمية، عدا ذاك الطفل الذي يمازحه كثيراً.. أمسك بيده وأخذه إلى السطح صوب السماء كثيرة النجوم، وأمره أن يغمض عيناً واحدة كأنما ينظـر مـن ثقـب صغيـر.. صـوّب النظر إلى تلك التلّة.. ثم إلى البحر.. أجل، هكذا.. أترى؟ هذه كوكبة الجبار وخلفنا يكون الشـمال الذي يسميّه جدّك بجهة الجبال. أفهمت يا نينو؟..يا للغرابة، للجدّ صوت

الطفل تحت جفني تريستانو المغمضتين، كأنهما شخص واحد. أوَهَل هذا أشدّ غرابة من السماء بكل تلك النجوم الموجودة منذ الأزل؟.. إنّ الأشياء القديمة في العالم تزداد شباباً كلما تقدّمت بها السنون، وتبدو متململة من وجودها.. قال الجد: فلنبدأ بجهة الغرب، لا بل سنبدأ بالجنوب الذي يسمّيه جدّك بجهة البحر عندما يتكلم مع رعاة البقر. سنبدأ من جهة الجنوب، فهناك توجد مجموعة الحصان الصغير. سأريك إياها الآن، اتّبع إصبعي. سمعت أنّ هذا المساء ستغنّي لك الجدّة أغنية الحصان الصغير لكي تنام.. كان لدي حصان صغير يعدّ خطوات القمر... هاهو الحصان هناك، وتدعى المجموعة هكذا لأنّ لها قصة. إنه حصان أهداه عطارد لصديقه. ويطلق الإغريق اسم هرمس على عطارد، لهم أسماؤهم الخاصة لأنهم أول من اكتشف النجوم، لكن النجوم كانت قبل الجميع. وهذا هو الشرق، وكل شيء جاء من الشرق العجيب والقديم حيث فهم البشر الأشياء بالتجريد. أمّا نحن متأخرون عن غيرنا يا نينو، لم نكتشف شيئاً ونعتقد أننا الروّاد. آه أين يأخذني الكلام بعيداً.. فلنعاود بهدوء. بالقرب من الحصان الصغير توجد البجعة، ونجمة البيتا في كوكبة الدجاجة تلك البرتقالية الأكثر لمعاناً من البجعة، وبالقرب منها يوجد الذنب كما تسمّيها العرب وتعني الذيل... عفواً لقد أخطأت، الذنب أكثر لمعاناً من هذه، وله رفيق غريب الأطوار يظهر مرة واحدة كل خمس سنوات. كان في تلك المجرة فتى يدعى فايتون يجرّ عربة الشمس مثلما يجرّ المُزارع عربة الحظائر. وقع في حفرة ذات مرة فغضبت عليه الآلهة وحوّلت العربة إلى تلك النجوم المبعثرة التي تراها. الآن سنغير مكاننا، اتبع إصبعي. هناك توجد نجوم الجدي والدلو الخافتة كأنوار المقبرة. إنها بعيدة

وأنا أحتاج للمنظار حتى أراها، أمّا أنت فلا لأنّ عينيك في أوجهما. لا تسألني كيف حفظت السماء عن ظهر قلب، فالسماء لا تتغيّر من صيف لآخر يا نينو، وأنا كنت أراها في كل صيف من حياتي..

يتحدث الجميع بين بعضهم بخفض الكلفة هذه الأيام. وهي طريقة مهينة وتوحي بثقة مزيّفة، ولا تعجبني لأنها تفتقد للاحترام. وأرى أنّ على الأشخاص أن يتحادثوا بلهجة رسمية عندما يعجبون ببعضهم، فهي صيغة تدلّ على التحضر واحترام الآخر. وترسم المسافة الضرورية ليتظاهر الواحد أنّه لا يعلم شيئاً عن أسرار الثاني الحميمة حتى لو يعرفان بعضهما حقّ المعرفة. وهذه الطريقة تدفع الأشخاص للارتياح أكثر، كما عندما يعترف لك فلان بشيء مهم وسري جداً فتتظاهر بالشرود، مع أنك لست بشارد، كي تظهر أمامه كأنّك لا تعرف شيئاً عن الموضوع وكأنك أقفلت على كلامه بصندوق قلبك السريّ.. الآن وقد حانت لحظة وداعنا، أودّ أن أخاطبك بلهجة رسمية. وهذا الأمر ليس من التفاصيل الثانوية، بل هو مهم لما ستكتبه عني فيما بعد. هل أنت موافق؟

يبدو لي أنّ الذبابة ما تزال موجودة، هلّا أخرجتها سيادتك! لا أريدها أن تقعد على فمي حين أغلقه للأبد. عندما تنشر حضرتك هذه القصة بكتاب، ضع على الغلاف اسم سيادتك فلا أريد أن يبقى اسمي عليه، بل لا أريد أن أكون الذي يروي إنما أرغب أن أكون مروياً... كتبت يا سيدي ذات مرة أنّ تريستانو عرف الخوف وأنا أكدت ذلك. لكن الخوف الحقيقي مختلف. وشعوره بالخوف حينها لا يتعدى شعور مجازف يخشى أن لا تجري الأمور وفق الخطة. أمّا الخوف الحقيقي عندما يعلم المرء بتوقف الساعة عن العمل حيث لا رجوع

إلـى الـوراء، وهـو إحسـاس غريب بالخـوف وغير مألوف لأنه يجرّب مرة واحدة في الحياة. يشـبه دوار السـقوط من نافذة تفتح مصراعيها علـى العـدم، وحينهـا ينتحـر العقـل عن التفكيـر حقاً. هذا هو الخوف الحقيقي.. بعد قليل، عندما لن تسمع أنفاسي بعد، افتح تلك النافذة من فضلك، واسمح للضوء وضجيج العالم الحي بالدخول. فالضجيج ينتمي إليكم يا سيدي، أمّا أنا سيصبح السكون مهنتي. ثم اذهب على الفور بعيداً، واغلق الباب وراءك واترك الجثة وحدها فأنا لست تلك الجثـة. لقـد أوصيـت فراوليـن بأن تتخلص منها بسـرعة. الموت شـاذّ يجامـع الأمـوات ولا يشـتهي الأحيـاء. ومـن الغبـاء أن نمـدح الموت بالحب لأنه قبيح وفيه فناء الحياة.. يقال إنّ الموت لغز، لكنني لا أرى لغزاً أشد غموضاً وتعقيداً من الوجود، حتى لو بدا للبعض تافهاً.. ألا ترى يا سيدي أننا، أنا وحضرتك، نشكّل لغزاً، أو حالة فريدة عموماً، بوجودنا داخل هذه الغرفة في هذه اللحظة تحديداً؟.. إني أشكرك من كلّ قلبـي.. ومـن دواعـي سـروري أن تقبـل مني هديـة أخرى.. أترى تلـك الصـورة فـوق الصندوق؟.. ليسـت تلـك التي على المكتب، بل تلك التي على صندوق المرآة بجانب الجرس الزجاجي حيث تواصل أسهم الساعة عملها الدؤوب حتى إذا وافتنا المنيّة. غريب أمر الساعة، نصنعها نحن البشر لتصبح تحت إمرة مالك آخر.. أجل، الصورة في الإطار حيث يوجد رجل عريض المنكبين يمشي على ساحل البحر.. أترى تلك البيوت في خلفية المشهد يا سيدي؟ كانت أمي تعيش في تلـك البلـدة، وهـذا أبـي ذاهـب ليتزوجها، لذا تراه أنيقاً مع أنه يمشـي على الشـاطئ. وبعد حفل الزفاف سيأتي بأمي إلى هذا البيت حيث ولـدتُ، وسيُعرض للبيـع مـا إن تتوفّـى فراوليـن.. إنها صورة جميلة،

وأهديك إياها يا سيدي. ضعها كلوحة غلاف لكتابك. ليس تريستانو لكنه والده وفيه شيء منه عموماً.. يدير وجهه إلينا كأنه يقول وداعاً، وهذا ما كنت أفعله خلال هذه الأيام مع حضرتك، وأفعله الآن للمرة الأخيرة.. انظر إلى الساعة، كم هو الوقت؟.. يبدو لك السؤال غبياً، لكنـه الشـيء الأخير الـذي أودّ معرفتـه.. وكمـا يقال: غـداً يوم جديد على أي حال.

هذا الكتاب رافقني طويلاً، كتبته على الدفاتر في بيتي وذهني، وبالأخص في بيوت أصدقاء أعزاء استضافوني بها كي أنهيه. أشكرهم جزيل الشكر. من غير اللائق أن أدعوهم بالاسم، فهم يعرفون.

أشكر فالنتينا بارلاتو التي استخدمت خبرتها وذكاءها في تنضيد أوراقي المبعثرة بين دفاتري ومخيّلتي فأخرجت منها كتاباً عندما لم يكن مؤهلاً لذلك.

أ. ت.



تريستانو يحتضر

رواية من إيطاليا

هذه الرواية مختلفة عن كل ما كتب تابوكي، حتى تظنها لكاتب آخر. إنها مليئة بالشكوك تمضي مضطربة لتبعثر تسلسل الأحداث، وتخلط بين الواقع والحلم والهذيان. إنها عرض غامض ومشهد رومانسي لكل الذكريات والكتب والنساء والأحاسيس التي مرّت في حياة البطل.

Il Sole 24 Ore

رواية وجدانية لا حدود لخيال أبطالها ولا إطار لجموح ذاكراتهم. مونولوج عميق على طريقة جيمس جويس، وتظهر أصداء جليّة من شخصيات همنغواي.

Corriere Della Sera

إنها رواية متشابكة تفلت من كل التأويلات والمفاهيم: هل هي الاعتراف الأخير؟ لكنها بلا شك محاولة لتقديم الحياة بشكلها العشوائي: بين وقائع وأوهام، وذكريات تسبق الأحداث، وأحلام تتبع الحدس، وهلوسات ضمير مريض.

La Repubblica

تصميم الغلاف : مهدي عبده

ISBN 978-614-01-0744-1

9 786140 107441

أثر